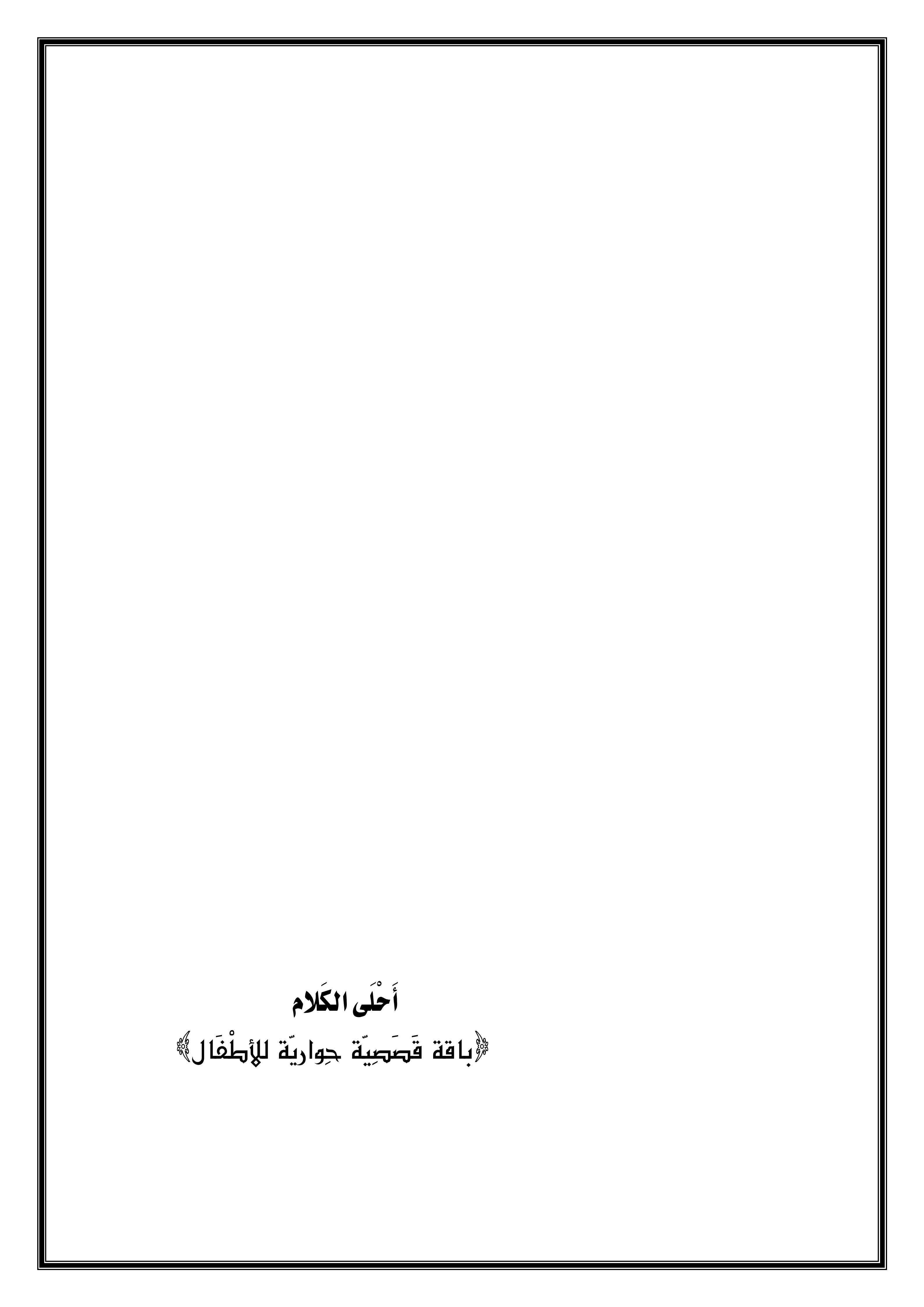


أَحْلَى الكَلام

﴿باقة قَصَصِيّة حِواريّة للأطْفَال﴾

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٧٠٧ / ٢/ ٢٠١٢)

٨١٣,٩
السعودي، أحمد عطية
أحلى الكلام: باقة قصصية حوارية للأطفال/ أحمد عطية السعودي. _
عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، 2013.
(١٠٠) ص
ر.أ: (٧٠٧/ ٢/ ٢٠١٢).
الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-١١٥-٧ ISBN



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

أَحْلَى الكَلام

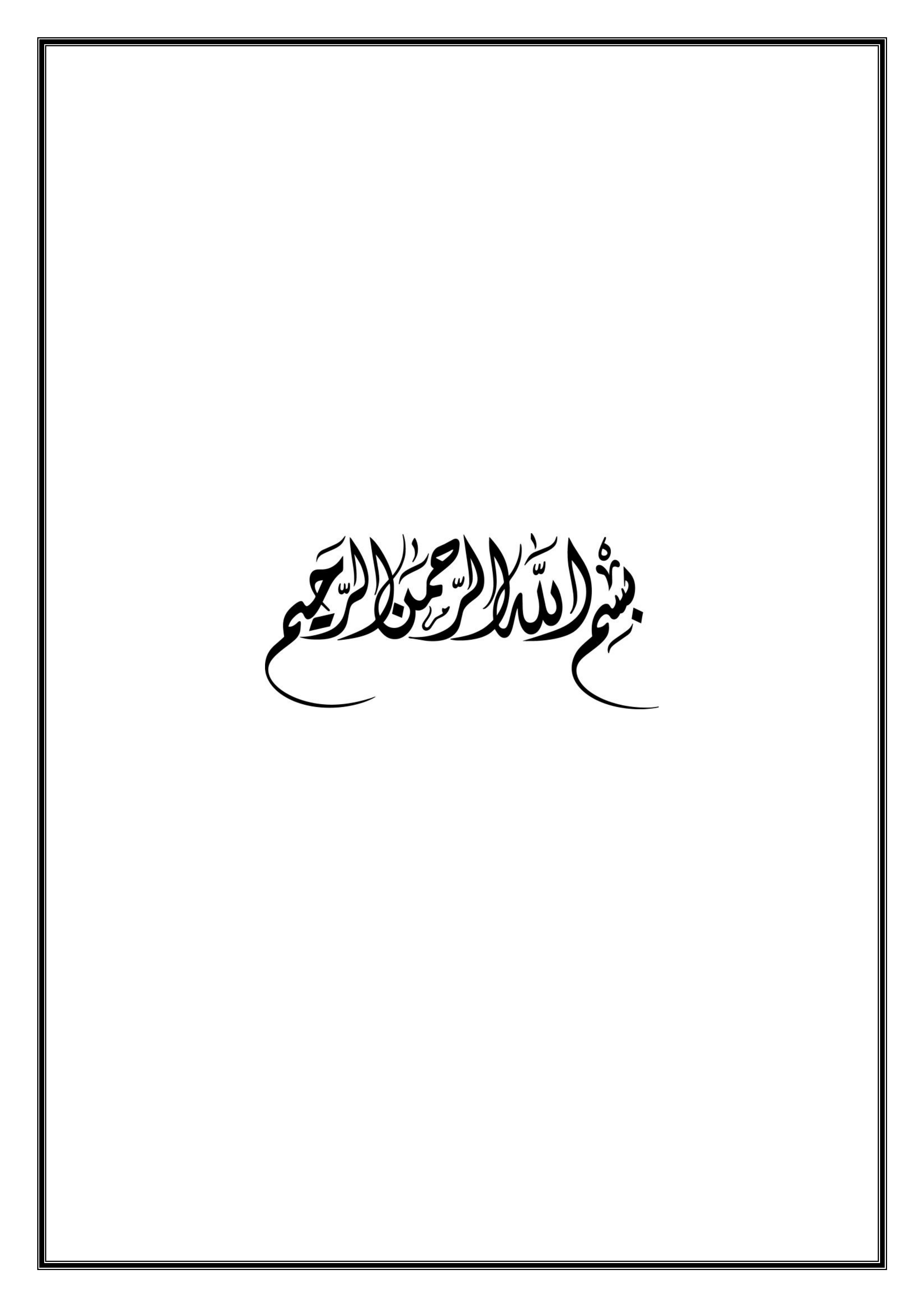
﴿باقة قَصَصِيّة حِواريّة للأطْفَال﴾

بقلم:

د. أحمد عطية السُّعوديّ



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

أَحْلَى الكَلام

﴿باقة قَصَصِيّة حِواريّة للأطْفَال﴾

- تُعرِّفُ باللّغةِ العَربيّة فُنونِها وأفنانِها
- تُحبّبُ اللّغةَ العَربيّةَ إلى نفوسِ النّاشئة
- تُعلّمُ التَّفكيرَ النّاقد، والحِوارَ الهادِف
- تُمتّعُ الصِّغارَ بنصوصِ العَربيّة المشرقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاح

لا تَلُمْني في هَواها أَنَا لا أهْوَى سِواها

نَزَلَتْ في كُلِّ نَفْسٍ وتَمَشَّتْ فِيْ دِمَاها

فَبِهَا الأمُّ تَغنَّتْ وبها الوالِدُ فاهَا

لَسْتُ وَحْدِي أَفْتَدِيْها كُلُّنا اليومَ فِدَاها!

(الشَّاعر حليم دموس)

مُقَدِّمَة

أحبَّائي الصِّغار،

أُقدِّمُ لكم قُطُوفاً شَهيّةً مِنْ لُغَتِنا العربيّةِ، لُغةِ الضَّاد، وحكاياتٍ مُمْتعةً أحلى من حكاياتِ السِّندباد، فاسْتَمِعُوا واسْتَمْتِعُوا:

في بيتٍ جميلٍ يُطِلُّ على وادٍ كثيرِ الزَّهْر والماء عاشَ ثلاثةٌ مِنَ الَّذين يحبّونَ جمالَ الطَّبيعةِ، ويتذوّقونَ الكلامَ الحُلوَ، ويَطْربونَ لتغريدِ البَلابِل، وزَقْزقةِ العصافير.

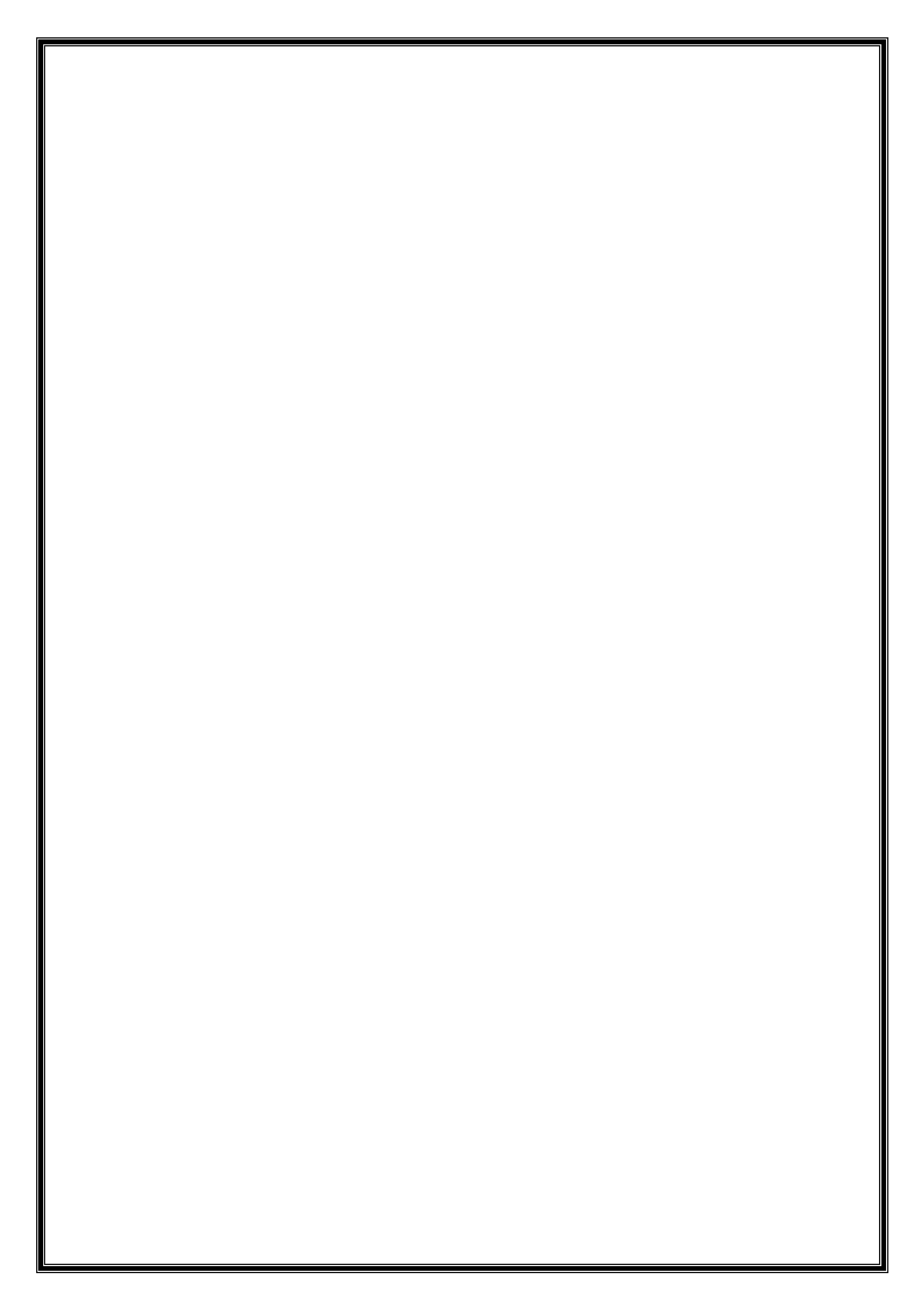
إنّهم جَدٌّ وحَفيداه:

الجدُّ هو الخليلُ بنُ أحمد، وهو عالمٌ جَليل، طيّبُ القلب، ظريفُ الحكاية، يُحبُّ حَفيديه الصَّغيرين، وهما يُحبّانِ مجالستَهُ؛ لأنّه بحرٌ واسعٌ في العِلْمِ والأدب، ولُغةِ العَرَب.

وحَفيداهُ هما:

عَمَّار، وهو طفلٌ مجتهدٌ، حريصٌ على العِلْمِ والتعلّم.

وجُمَانةُ، وهي أُختُهُ، طفلةٌ مجتهدةٌ، حريصةٌ على العِلْمِ والتعلّم أيضاً.



قصّة لُغتنِا الجَميلة

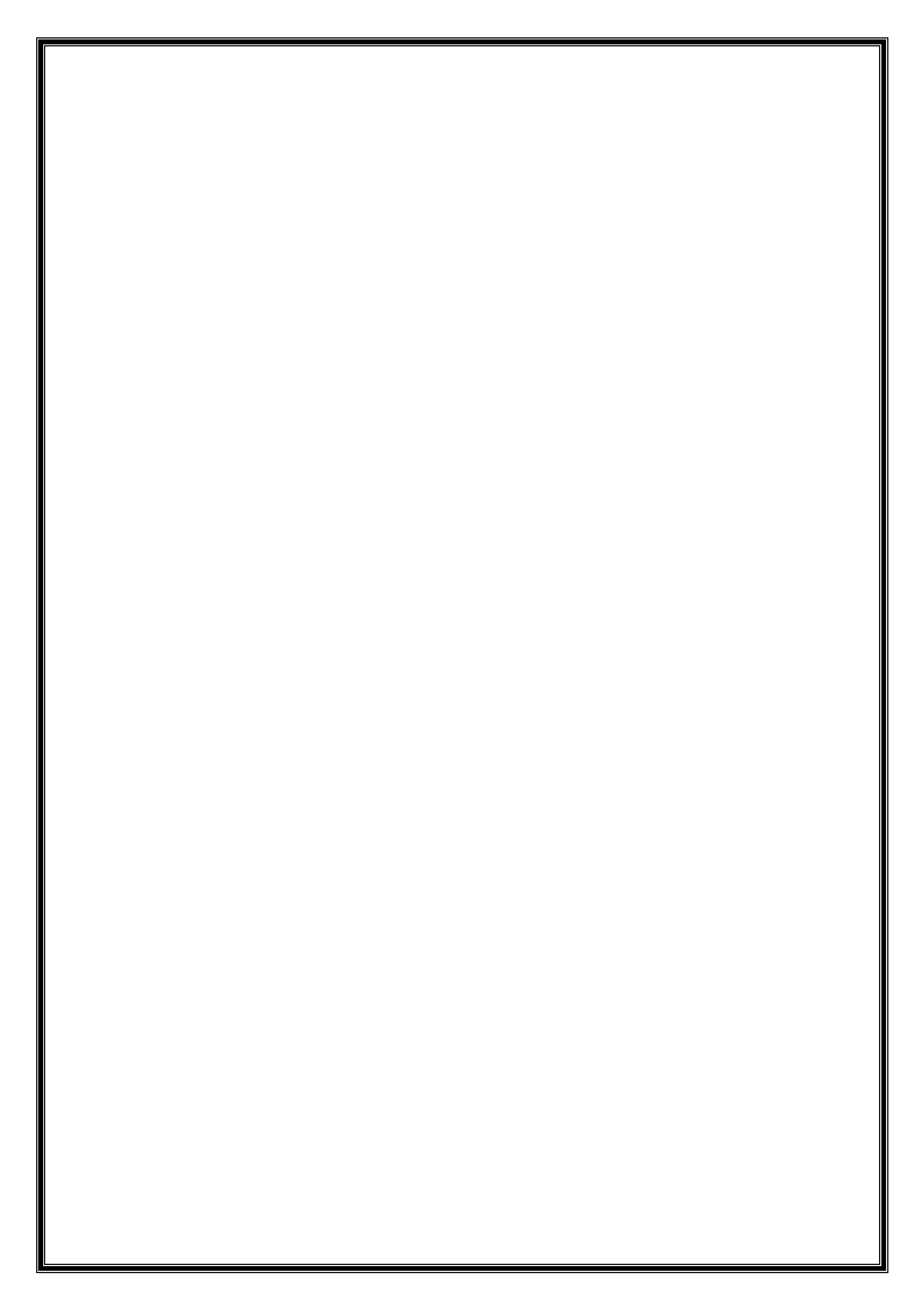
(١) النّعمةُ الكبرى

(٢) لُغةُ الحيَوان

(٣) أصلْ العَربيّة وأهلْها

(٤) فنونُ العَرَبيّة وأفنانُها

(٥) العقلُ الباهِر والقَلَمُ المَاهِر



(١)
النِّعْمةُ الكُبرى

فِي أحدِ أيامِ الرَّبيع جلسَ الأحبّةُ الثلاثة على سَطْحِ البيت، ودار بينَهم هذا الحِوارُ البَديع، وهم يُمتِّعُون أبصارَهم بالأزاهير، ويَسْتَنْشِقون الرّوائحَ العَطِرة:

قالَ عمَّار: يا جَدّي العزيز، سمعتَ الإمامَ البارحةَ يقرأُ في صلاةِ العِشاءِ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

فَما هذهِ الأسماءُ التي تعلَّمَها آدمُ عليه السلام قبلَ أنْ يتعلَّمَ صُنْعَ الطَّعامِ والشَّراب، ونَسْجَ الثِّياب؟

الجَدُّ: تعرفونَ يا أحبّتي، أنَّ اللهَ جل جلاله خلقَ آدمَ لعِمَارةِ الأرض، وعبادتِه فيها، ومِنْ أجلِ ذلك زوّدهُ اللهُ بمعرفةِ أسماءِ الأشياء حتى يَسْهُلَ عليه أنْ يتعامَلَ معها، وأمدّهُ بالعقلِ الذي يستطيعُ به أنْ يضعَ لكلِّ شيءٍ اسْمَاً.

وفي حياتِنا المعاصرةِ اليومَ أسماءٌ كثيرةٌ لم تكنْ معروفةً في قديمِ الزّمان مثل: التِّلفاز، والثَّلاّجة، والمِصْعَد، والكَهْرباء، والصَّرّاف الآليّ، وغيرها.

جُمانة: إذنْ يا جدّي، الأسماءُ التي تعلَّمَها سيّدُنا آدمُ هي أسماءُ الكائناتِ والجمَادات، والأشياءِ والمخلوقات، ومعنى ذلك أنّه تعلّمَ اللغةَ التي لولاها لكانتْ حياتُنا صامتةً خَرْساءَ، لا تسْمعُ فيها كلاماً واضحاً!

قال الجَدُّ: أجلْ يا جُمانة، تعلَّمَ آدمُ عليه السلام اللغة، ولذلك بيّنَ اللهُ عز وجل أنَّ مِنْ أعظمِ نِعَمِه على الإنسان نعمةَ البيان، ونُطْق اللّسان، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

والبيانُ هو القدرةُ على النُّطق، والتَّعبير عن المشاعرِ والأفكارِ بألفاظٍ واضحة.

ودعانا رَبُّنا عز وجل إلى التفكّرِ والتأمُّلِ في آياتِهِ الباهرة، ومنها هذه اللّغاتُ المختلفةُ التي يتكلّمُ بها ملايينُ النّاس في أرجاءِ الأرض، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

عمّار: سبحانَ اللهِ الّذي علّمَ بالقلمِ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ، ولكنْ يا جدّي، لو سألني مُدرِّسُ اللغةِ العربيّة عن تعريفِ اللغة، فَبِمَ أُجيبُه؟

هل أقولُ له: إنَّ اللغةَ مِثْل كَعْكَةِ العيد، نتذوّقُ حلاوتَها دونَ أنْ نُفكِّرَ في تركيبِها ومحتوياتِها؟!

الجَدُّ: اللغةُ يا بُنيَّ، أحلى وأكبرُ من كَعْكَةِ العيد، بلْ أكبرُ من مَلْعبِ كُرةِ القَدَم، وأعقدُ من تمديداتِ المياه في "طوكيو" عاصمةِ اليابان!

وهي بإيجاز: رموز وأصوات يُعبّرُ بها النَّاسُ عن مشاعرِهم وأفكارِهم.

ففي العربيّةِ مثلاً نقولُ لِمَنْ أحسنَ إلينا: شُكْراً، وفي الإنجليزيّة "ثَنْكْ يُو"، وفي الفرنسيّة "مرْسِي".

وهي كما تلاحظُ: أصواتٌ مختلفةٌ، والمعنى واحد!

جُمانة: إنّ عمّاراً يا جدّي، يفكّرُ في الكَعْك والشّاي، وكأنّه يُذكِّرُكَ بالحكايةِ التي وعدتَهُ بها؛ لنستمتعَ بسماعِها معَ قِطَعِ الكَعْك، وأكوابِ الشَّاي!

الجدُّ: أبشرْ يا عمّارُ، بحكايةٍ في خِتامِ كُلِّ جَلْسَة، ولكنْ لاحظْ أنَّ اللغةَ هي التي تجعلُك تطربُ للحكاية، وهي التي تجعلُك تبتسمُ وتضحكُ وتُقَهْقِهُ.

اسمعا الحكاية: قال رجلٌ أَكولٌ لجارِهِ البخيل:

– يا أخي، لِمَ لا تَدْعُوني إلى الغَداءِ معَك، ولو مرّةً في السَّنَة؟

قال البخيلُ: لا أدعوك؛ لأنَّكَ جيِّدُ المِضْغِ، سريعُ البَلْع، إذا أكلتَ لقمةً هيَّأْتَ أُخْرى.

قال الأَكولُ: سبحانَ اللهِ يا أخي، وهلْ تُريدُني أنْ أُصلّيَ ركعتينِ بينَ كُلِّ لُقْمَتين!

وإلى لقاءٍ طيّبٍ في جلسةٍ أخرى يا أحبّائي.

(٢)

لُغَةُ الحيَوان

في الجلسةِ الثانيةِ اجتمعَ الجدُّ الخليلُ وحَفيداهُ عمّار وجمانة، وجلسوا ثلاثَتُهم تحتَ شجرةِ زيتون، وابتدأَ عمّارٌ الحديثَ قائلاً:

حدّثتنا يا جَدّي، عن اللغة، فهلْ لها وظائفُ أخرى غير التَّعبيرِ عَنِ المشاعرِ والأفكار؟

الجدّ: نعمْ، نعمْ. عُدَّ على أصابِعك يا عمّار:

اللغةُ طريقةٌ للتفاهمِ والتواصلِ بينَ النّاس في القرى والبوادي والمدن.

واللغةُ وسيلةٌ لِنَشْرِ الثقافةِ والمعرفة، ومحاربةِ الأميّة والجَهْل.

واللغةُ أداةٌ للدعاية التِّجاريّة عن طريقِ الإعلانات في الصُّحفِ والإذاعةِ والتِّلْفاز.

واللغةُ هي الوِعَاءُ الذي يحفظُ تراثَنا الثقافيَّ والحضاريّ عن طريقِ المكتبات الكبيرة.

واللغةُ هي التي تجعلُنا نستفيدُ من تجاربِ الأمم، ونطّلعُ على عاداتِها وتقاليدِها.

واللغةُ هيَ التي تربيّ الإنسان؛ لأنّه يكتسبُ الأخلاقَ الحميدةَ من خلالِ نصائحِ والديه، وتعليمِ مُعلّميه، وتوجيهِ مُربّيه.

والخلاصةُ أنَّ اللغةَ للإنسانِ كالماءِ للبستان، فوائدُها كثيرة، ومنافُعها عظيمة.

جمانة: يا جدّي، كم عددُ اللغاتِ في عالمِنا المعاصر؟

أنا أظنُّها لا تزيدُ عن عددِ أصابعِ اليدين، وعمّار يظنُّها لا تزيدُ عن أصابعِ اليدين والرِّجْلين، وأمّا أنتَ يا جدّي؟

الجدّ: أمَّا أنا فأقولُ: إنَّها تزيدُ عن ثلاثةِ آلافِ لُغة، ولكنَّ اللغاتِ المشهورةَ تبلغُ خمسين لغةً.

ومن أشهر هذه اللّغات: لُغتنا العربيّة، واللغة الإنجليزيّة، واللغة الفرنسيّة، واللغة الإسبانيّة، واللغة الرُّوسيّة، واللغة الصينيّة، واللغة اليابانيّة، واللغة الألمانيّة، واللغة الفارسيّة.

عمّار: فما أجملُ هذهِ اللُّغات، وما أحلاها؟

الجدّ: أجملُها، وأحلاها، وأروعُها، وأبدعُها لُغتُنا العربيّة؛ لأنّها لغةُ القرآنِ الكريم، ولُغةُ الرَّسولِ العظيمِ محمّدٍ ﷺ، ولغةُ الصّحابةِ الكرام ﷺ، ولغةُ الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّة، ولغةُ آبائِنا وأجدادِنا.

ولقد صدقَ الشَّاعرُ إذ يقولُ مُفْتخراً بمحاسنِ لُغتِنا وجمالِها:

إنَّ الَّذي ملأَ اللُّغاتِ محَاسِناً جعلَ الجمالَ وسِرَّهُ في الضَّادِ!

أي إنَّ الله تعالى قد ملأَ لُغاتِ العالَمِ بالجمالِ والحلاوة، وزادَ الجمالَ والحلاوةَ في لُغتنا العربيّة التي تتميّزُ بوجودِ حَرْف "الضّاد" فيها دون سِواها من اللّغات.

واللغةُ العربيّة هي أقدمُ اللّغاتِ، وأطولُها عُمراً، فلم تتبدّل، ولم تتحوّل، ولم ..

جمانة: أعتذرُ عن مُقاطعتِكَ يا جدّي، خَطَرَ ببالي سؤالٌ مُهمّ:

هـلْ للحيوانـاتِ لغـةٌ تتخاطـبُ بهـا كمـا يتخاطـبُ النـاسُ، وكمـا نتخاطبُ نحنُ الآنَ؟

عمّار: ما هذا السُّؤالُ السَّخيف يا جمانة، أتعتقدينَ أنَّ الحمارَ يتكلّمُ ويحاورُ رِفَاقَهُ الحمير في السّياسة والاقتصاد؟

وأنَّ الفيلَ يخْطُب، ويقولُ بأعلى صوتِهِ: يا معشرَ الفِيَلة، نظّفوا خراطيمَكم بالماءِ والصّابون، فغداً هو عيدُ الفِيَلة؟

وأنَّ الدَّجاجةَ تقصُّ على صاحباتِها قصةَ "ألف ليلة وليلة"؟!

أمْ تظنّين أنَّ الحيواناتِ رسومٌ متحرّكة مثل "الحوت الأبيض"؟

الجدّ: تمهّلْ يا عمّار، ولا تُفْتِ بغيرِ علم، واعلمْ أنَّ الحيواناتِ جميعَها لها لغاتٌ تتفاهمُ بها، ولها مَنْطِقٌ خاصٌّ بها، لا نستطيعُ أنْ نفهمَهُ.

فلا تظنّ أنَّ الحيواناتِ بَكْماءُ خَرْساء، بل هي ناطقة، ولها رموزٌ خاصّة بها.

فلا عجبَ أنْ تسمعَ أنَّ للحمارِ لُغةً خاصّة به!

والدَّليلُ على ذلك من القرآنِ الكريم، فقد قصَّ علينا من خبرِ سُليمان عليه السلام الذي علَّمَهُ الله عزّ وجلّ مَنْطِقَ الطير، وأسمعَهُ كلامَ النّملة، وهي تُحَذِّرُ أخواتِها، ففهمَ سليمانُ قولَها، وتعجّبَ وتبسَّمَ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾.

وقصَّ علينا القرآنُ الكريمُ قصَّةَ الهُدْهد الذي ذهبَ إلى أرضِ اليمن دونَ عِلْمِ سليمان، فلمّا جاءَ تحدّثَ عن رحلتِه في أرضِ اليمن، ففهمَ سليمانُ قولَ الهُدْهد:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

عمّار: أفحمتَني يا جدّي، وغلبتَني بالأدلّة، ولكنْ لا تنسَ الحكايةَ التي تختمُ بها الجَلْسَة، ونريدُ أنْ نتبسَّمَ ضاحكين من الطُّرْفة كما تبسَّمَ سليمانُ ضاحكاً من النَّمْلة!

جمانة: الحمدُ لله، أفحمَك جدّي؛ لأنّك استعجلتَ، وسخَّفْتَ سُؤالي، والعربُ تقولُ: في التأنّي السَّلامة، وفي العَجَلةِ النَّدامة.

الجدّ: على ذِكْرِ الحيوانات، وعلى ذكْرِ الحِمار الذي زعمَ عمّار أنّه لا يتكلّم، اسمعا هذه الطُّرْفة:

قالَ رجلٌ لصاحبِه: ما فعلَ فلانٌ بِحِمَارِهِ؟

قال: باعِهِ.

قال الرّجلُ: قلْ: باعَهُ. ولا يجوزُ باعِهِ.

قال صاحِبُهُ: سبحانَ اللهِ يا أخي، باؤكَ تجرُّ، وبائي لا تَجُرُّ ؟!

(٣)

أصْلُ العَربيّة وأهْلُها

بعدَ صلاةِ الجُمعةِ تحلَّقَ الجَدُّ وحفيداه حولَ مائدةِ الغَداءِ، فقال عمّار:

يا جدّي، أسمعُ المتحدِّثين عن اللغةِ العربيّة يُكْثِرُون منْ ذكرِ "سام بن نُوْح"، فما علاقتُه بِلُغتِنا، وقد عاشَ في أعماقِ التَّاريخ؟

الجدّ: حَسَناً، إنَّ أصلَ لُغتِنا العربيّة يرجِعُ إلى اللّغةِ السَّاميّةِ التي تُنْسَبُ إلى سام بن نُوح، وقد تفرّعتْ عن هذهِ اللغةِ الأمّ لغاتٌ كثيرةٌ منها: البابليّة، والآراميّة، والعِبْريّة.

وأقربُ هذه اللغاتِ إلى اللغةِ السَّاميّة هي لُغتُنا العربيّة.

جمانة: معنى هذا أنَّ لُغتنا دَوْحةٌ عَريقةٌ ضاربةٌ في جذورِ التَّاريخ، ولكنْ يا جدّي، أينَ كان مَوْطِنُ هذه اللغاتِ التي ذكرتَها؟

الجدُّ: ما شاءَ الله! تسألانِ عن التَّاريخ حتى أنساكُما أكلَ الحلوى والبِطّيخ!

اعلمي يا جمانة، أنَّ مَوْطِنَ تلك اللّغاتِ كان في أرضِ العراق، ثمَّ في جزيرةِ العَرَب.

عمّار: جدّي، جدّي، حدِّثْنا عن العَرَب وعن جزيرتِهم، فأنا أُحبُّ العَربَ، وأحبُّ جزيرَتَهم أكثرَ من حُبِّ الألعاب والحلوى.

الجدُّ (مُبْتسماً): يا بُنيّ، جزيرةُ العرَب أرضٌ واسعةٌ مُحاطةٌ بالماء من جهاتٍ ثلاث، ومعظمُها صَحْراء. أمَّا أهلُها فهم العرَب، وكانوا قِسْمين كبيرين:

القسم الأول: عرَب بائدة، وهم قبائل قديمة انْدَثَرتْ وزالتْ، منهم عاد وثمود.

القسم الثاني: عرَب باقية، وهم فرعان:

القحطانيّون نسبةً إلى يَعْرُب بن قَحْطان، وكانوا في اليمن.

والعدنانيّون نسبةً إلى عدنان أحدِ جُدودِ العرَب، وهم سكّانُ الحِجازِ ونَجْد، أي سكّان جزيرة العَرب.

والعربُ يتّصفون بالشَّجاعةِ والكَرَمِ والفصاحة، وقد شرّفَهم الله؛ إذ أنزلَ القُرآنَ الكريمَ بلغتِهم، وجعلَها لغةً عالميّة راقيةً بعدَ أنْ كانتْ لغةً صحراويّة محصورةً في أهلِها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

جمانة: أفهمُ يا جدّي، مِنْ هذه الآياتِ الكريمة أنَّ اللغةَ العربيّةَ لغةٌ مُتميّزة؛ لأنّها مرتبطةٌ بالقرآنِ الكريم ارتباطاً وثيقاً، فهي خالدةٌ بخلودِهِ، باقيةٌ ببقائِهِ، عظيمةٌ بِعَظَمتِهِ، مُيَسَّرةٌ بتيسيرِهِ.

الجدّ: أجلْ يا بِنْتي، فالعربيّةُ هي أغنى اللُّغات، وأقدرُها على

الاشتقاقِ والتَّوالد، فنحن نشتقُّ من كلمةٍ واحدةٍ مثل (عَلِمَ) عشراتِ الكلمات مثل:

عِلْم، علوم، تعليم، تعليمات، مُعلِّم، مُعلَّم، عالِم، مُتعالم، استعلام، استعلامات، معلومة، معلومات..

ومن خَصائِص العربيّة:

- أنّها لغةُ الإعراب، وظهورِ الحرَكات على أواخرِ الكلمات، فالمعاني تتغيّرُ بتغيّرِ الحرَكات، فمثلاً كلمة "جمل" يمكن أن تُقْرأ:

جَمَل(أي بعير)، أو جُمَل (أي أجزاء من الكلام).

- أنَّها كثيرة المفردات والمترادفات، مثلاً كلمة الطريق لها كلمات أخرى تعبّرُ عن معناها مثل: الدّرب، الشّارِع، السَّبيل، الصِّراط، النَّهْج، المِرْصاد، الجادّة.

- أنَّها لغةُ الإيجاز، ودقّة التعبير، فالعربُ هم أقدرُ الأممِ على نَقْل المعنى بعبارةٍ قصيرة تصلُ إلى حدِّ الإيماءةِ والإشارة.

عمّار: من المؤكّد يا جدّي، أنَّ هذه الخصائصَ التي تتمتّعُ بها العربيّةُ هي التي تجعلُها تَغْريداً حُلْواً، ونَغَماً عَذْباً على أفواهِ الملايين من أبنائِها ومُحبّيها.

الجدّ: ولهذا فإنّني أقدّمُ لكم في ختامِ هذه الجَلْسة أنشودةً حُلوةً عن العربيّة، فردّدوا بعدي:

لاــ تَلُمْــني في هَواهــا أنــــالا أهْـــوى سِـــواها

نَزَلَــتْ في كُــلِّ نَفْــسٍ وتمشَّــــتْ فـــي دِمــــاها

فَبِهــــا الــــلأمُّ تغنَّــــتْ وبهـــا الوالــــد فاهــــا

لســـتُ وَحْـــدي أَفْتــديها كُلُّنـــا اليـــومَ فِدَاهــــا

أرجو يا أحبابي، أنْ تحفظوا هذهِ الأنشودة، فإذا حفظتُموها فأرجو أنْ تنشدوها على مسامعِ أصدقائِكم في الإذاعةِ المدرسيّة.

(٤)
فنونُ العَرَبيّة وأفنانُها

اصْطَحبَ الخليلُ بنُ أحمد حَفيديهِ عمَّاراً وجُمانة إلى تلَّةٍ مَكْسوّةٍ بالأزهارِ والأشجار، فأخذَتْ جمانةُ تَبْني من العُشبِ بيتاً لِدُمْيَتِها، وشرَعَ عمّار يتسلّقُ الأشجار ويغنّي، فقال له جدُّهُ: يا عمّارُ:

انْظُـــرْ لتلـــكَ الشَّـــجَرةْ　　ذاتِ الغُصـــونِ النَّضِـــرَةْ
كيـــفَ نَمَـــتْ مـــنْ حبَّـــةٍ　　وكيـــفَ صـــارتْ شَـــجَرَةْ!

عمّار: سبحانَ الله! لقد تعلّمْنا في درسِ العلومِ أنَّ الشَّجرةَ كائنٌ حيٌّ مثل الإنسان، تتألّفُ من جَذْرٍ، وساقٍ، وأغصانٍ، وأوراق.

الجدُّ: أحسنتَ. واللغةُ العربيّة كائنٌ حيٌّ، وهي تشبهُ هذه الشَّجرةَ الشَّامخة التي أصلُها ثابتٌ، وفرعُها في السَّماء، وفروعُ اللغةِ العربيّة تُشْبهُ أغصانَ هذهِ الشَّجرة.

جُمانة: أرجوكَ يا جدّي، أنْ تذكرَ لنا فروعَ لُغتِنا العربيّة حتّى أرسمَها وأرسمَ شجرتَها اليانعة بألوانٍ زاهية.

الجدّ: أبشري يا جمانة، لما أنزلَ اللهُ القرآنَ الكريمَ بلغةِ العرَب حَرَصَ العلماءُ على خدمةِ كتابِ الله، وتسهيلِ تعلُّمِه وتعليمِه، فأنشأوا العلوم، ووضعوا القواعد.

وكان من هذهِ العلوم: عِلْمُ النَّحْو، وعِلْمُ الرّسم أي (الإملاء والخطّ)، وعِلْمُ المعاجم، وعِلْمُ العَروض، وعِلْمُ النَّقد، وعِلْمُ البلاغة، وعِلْمُ تاريخِ الأدب.

عمّار: أعتقدُ يا جدّي، أنَّ هذه العلومَ التي ذكرتَها صارتْ للغةِ العربيّة كالأوتادِ التي تشدُّ الخيمة، فتمنع سُقوطَها، وتمنع تمزّقَها.

الجدُّ: حقّاً يا عمّار، هذه العلومُ جعلَتِ العربيّةَ صامدةً صُمودَ الجبال، راسخةً رُسوخَ الحجارةِ القوية، ولهذا انتصرَتِ العربيّةُ على الحمَلات الاستعماريةِ الحاقدة التي شُنَّتْ عليها بهدفِ إحلالِ العاميّة محلّها، وكتابةِ حُروفِها بالحروفِ اللاتينيّة، وبهدفِ تنفيرِ العرَبِ من لُغتِهم.

لقد انتصرَتْ على أعدائِها، وهزَمَتْهُم بفضلِ المخلصين من أبنائِها وبناتِها.

جمانة: وكيفُ نواجهُ يا جدّي، المؤامراتِ المعاصرة التي تُشَنُّ عليها بين الحين والحين، وتتهمُها بالصُّعوبة، وعدمِ مُواكبةِ العصر؟

الجدُّ: سؤال رائعٌ. لا بدَّ من خطواتٍ عمليّة لمواجهةِ أعداءِ العَربيّة.

الخطوة الأولى: الحرصُ على التحدُّثِ باللغةِ العربيّة في كلِّ مجال، وفي كُلِّ مكان؛ لأنَّ التحدّثَ بالعربيّة من شعائرِ الدّين الحَنيف.

الخطوة الثانية: مدارسةُ القرآنِ الكريم، والحرصُ على تعلّمِه وتعليمِه، تعلُّمِ أحكامِ تجويدِه، وقراءةِ تفسيرِه، وتحليلِ بيانِه، وحِفْظِ آياتِه، فالنبيُّ ﷺ يقولُ: "خَيْرُكم مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ".

الخطوة الثالثة: العنايةُ بالتّعليم؛ لأنّه العمودُ الفِقْري في تكوينِ الوَعْي اللُّغويّ لدى الناشئة، ومن صُور هذه العناية: رعايةُ المدرّسين، وزيادةُ رواتبِهم، وإصلاحُ المناهج، وأساليبِ التَّدريس.

الخطوة الرَّابعة: العملُ على تدريسِ العلومِ المعاصرةِ كالطبّ والصّيدلة والهندسة باللغةِ العربيّة بدلاً من تدريسِها باللغةِ الإنجليزيّة أو اللغةِ الفرنسيّة.

الخطوة الخامسة: تشجيعُ الإنتاجِ الفِكْريّ والأدبيّ المكتوبِ باللغةِ العربيّة الفصيحة، وذلك كالمؤلّفات، والدَّواوين الشّعريّة، والبحوث والدِّراسات.

الخطوة السَّادسة: العنايةُ الفائقةُ بوسائلِ الإعلام كالصّحافةِ والتَّلْفَزةِ والإذاعة، وتوجيهُها نحو تقديمِ برامجِها بالعربيةِ الفصيحة، وتقديمِ روائعِ النصوصِ الأدبيّة والعلميّة.

عمّار: هذه خُطّة متكاملةٌ تقدّمُها يا جدّي، لكلِّ مُحبٍّ للعربيّة، فلا عُذرَ لأحدٍ بعدَ هذه الخُطّة الواضحة، لا عُذْرَ للمتخاذلين والكُسالى.

ونحنُ يا جدّي، من مُحبّي العَربيّة، ومن مُحبّي حكاياتِها، وقد حانَ موعدُ الحكاية، أليس كذلك؟

الجدّ: بلى يا عمّار، فاسمعا هذهِ الحكايةَ الشّعريّة عن الثعلبِ الماكرِ.

يروى أنَّ ثعلباً ماكراً قد رأى ذئباً يتغدّى، فانتشَبتْ في حَلْقِ الذئب عظمة، فسدَّته، فلم يستطعْ أنْ يأكل، فظلَّ أياماً من غيرِ طعام، فأصابَهُ جوعٌ شديدٌ، وضَعُفَ جسمُهُ، حتى أشرفَ على الموت!

فذهبَ الثّعلبُ إلى أمّ الذئب يُواسيها ويُصبّرها، وهو يبكي على حالِ ابنِها، ويقول: إنّني حزينٌ جدّاً على مصيرِ ابنِك، وحزينٌ لأنَّ الناسَ سيقولون: إنّه ماتَ بسببِ عَظْمة!

وكان الثعلب يتشفّى بالذّئب، ويطمعُ في لحمِه، ويتمنى أنْ يموتَ عاجلاً، ولكنّه يُظْهِرُ لأمِّ الذئبِ ما لا يُبْطِن:

كان ذئبٌ يتغدَّى فَجَرَتْ في الزَّورِ عَظْمَهْ
منَعتْهُ الأكلَ حتَّى أهلكَتْ بالجوعِ جِسْمَهْ
فأتى الثَّعلبُ يبكي ويُعزِّي فيهِ أُمَّهْ
قالَ يا أمَّ صديقي فِيَّ ممَّا فيكِ غُصَّهْ
إنَّ ما يُحْزِنُ حقَّاً قولُهُمْ: ماتَ بِعظْمَهْ!

(٥)

العقلُ الباهِر والقَلَمُ الماهِر

قال عمّار لأختِه جمانة: رأيتُ جدّي في مكتبتِه يفكّرُ طويلاً، ثمّ يكتب، وأظنُّ أنّهُ اليومَ مشغولٌ عنّا، فتعالَي نخلعْ أحذيتَنا، ونتسلّلْ إلى الطَّاولةِ التي يكتبُ عليها، ونختبئ تحتَها، ثمَّ نظهر أمامَهُ فجأةً، ونحن نغنّي: افتحْ يا سِمْسِم!

ثمَّ نفّذا الخُطّة التي اتّفقَا عليها، ولكنَّ الجَدَّ أحسَّ بحركتِهما تحتَ الطَّاولة، فانحنى عليهما، وقال مُداعباً:

– ما جاءَ بكما أيّها الظَّريفان المشاغبان؟!

عمّار: جئنا لنقطعَ حبلَ أفكارِك، يا جدّي، ونوصِّلَهُ بحبلِ أفكارِنا!

الجدّ: حَبْلُ أفكاري مُتصلٌ لا ينقطع، ولو جاءَ معكما عَشَرةُ مُشاغبين!

جمانة: بل جِئْنا لنسألَكَ يا جدّي، عن هذهِ النِّقاطِ والأشكالِ التي تضعُها على الحروفِ والكلمات، ما هي؟

الجدّ: هذه النِّقاطُ والأشكالُ التي أضعُها فوقَ الحروفِ والكلماتِ هي نِقاطٌ وحركات، وقد كانتْ كتابةُ العَربِ خاليةً من النّقط والشَّكل، فإذا أرادوا أنْ يكتبوا كلمة: "زَيْد" كتبوها هكذا "رىد"، وكذلك يكتبون هذه الجملة:

"لم ار سمكه على طهر حل ".

فإذا نقَّطْناها ووضعنا عليها الحركاتِ تصبحُ واضحة: لَمْ أَرَ سَمكةً على ظَهْرِ جَبَل.

عمّار: وأنا يا جدّي، ما رأيتُ سَمكةً على ظَهْرِ جَبَل! الأسماكُ تُرى في البحر!

الجدّ: وقد استطعتُ بحمد الله أنْ أضعَ النّقاطَ والحركاتِ التي ترونَها الآنَ على الكلماتِ من أجلِ التفريقِ بين الحروف، وتسهيلِ الكتابةِ والقراءة، وتجميلِ الكلمات.

جمانة: ما شاءَ الله، أنت مُبْتكر عظيم يا جدّي، ابتكرتَ الشَّكل للكتابة، واكتشفتَ بحورَ الشّعر، ووضعتَ أوّلَ مُعْجم في لغةِ العرَب، وأسَّستَ عِلْمَ النَّحْو.

وإنَّ أعمالَكَ تستحقُّ أنْ تُكتبَ بماءِ الذّهب، وتزيّنَ بأجملِ الخُطوط العربيّة: الكُوفي، والرّقعة، والنَّسخ.

عمّار: ونحنُ نفتخرُ بأنّك جَدُّنا، وأنتَ أولى الناسِ بالتكريمِ والتقدير، ولو كنتَ عندَ غيرِنا لجعلوكَ قِدِّيساً!

ويجبُ أنْ تُؤسّس جامعةٌ تحملُ اسْمَك، ويُكتب عليها: "جامعة الخليل بن أحمد"!

وأنتَ واللهِ يا جدّي، عَقْلٌ باهِر، وقَلَمٌ ماهِر!

الجدّ: شكراً لكما على هذا المدحِ والثناء.

إنّي أرجو الثوابَ من الله تعالى، وأتمنى أنْ يستفيدَ الناسُ كلُّهم من أعمالي وابتكاراتي، حتى تكونَ أقلامُهم وألسنتُهم ماهرةً في الكتابةِ والقراءةِ

والمحادثة.

جمانة: ما الذي دفعَكَ يا جدّي، إلى حُبِّ العربيّة، حتى قضيتَ عُمُرَك في تعليمِها؟

الجدّ: ما دفعني إلى حُبّ العربيّة هو القرآنُ الكريم الذي نزلَ بلغةِ العَرب، ووحَّدَهم بعدَ أنْ كانوا مُتفرّقين، وجعلَ لغتَهم أشرفَ لغة، ورفعَ ذِكْرَهم في العالمين.

وقد وجبَ على كلِّ واحدٍ منّا أنْ يحبّ العربيّة، ويتعلّمَها: يتعلّم إملاءَها، وخُطوطَها، وقواعدَها، وبلاغتَها، ويعلّمها الناس، ويعتزّ بها، ويُدافع عنها.

عمّار: ووجبَ على كلِّ واحدٍ منّا أنْ يستمتعَ بنصوصِ العربيّة، وإذا حدّثَهُ جدُّهُ فعليه أنْ يصمتَ ويَسْمع، وإذا لم يحدّثْهُ جدُّه فليطلبْ منهُ حكاية!

وأنا أطلبُ منك حكايةَ اليوم يا جَدّي!

الجدّ: على الرأسِ والعين، يا سيّد عمّار!

يروى أنَّ رجلاً من الأعرابِ مَرِضَ، فصارَ الناسُ يدخلون عليه، ويسألونه: كيفَ حالُك؟ كيفَ أصبحتَ؟ كيفَ أنتَ؟ كيفَ كُنْتَ؟ وكيفَ..؟

فلمّا أكثروا عليه انزعجَ منهم وضَجِر، فكتبَ قصّةَ مرضِه وأجوبةَ الأسئلةِ على ورقة، فكانَ إذا دخلَ عليه واحدٌ، وسألَهُ عن حالِه أعطاهُ الورقة؛ ليقرأَها حتى يَسْلَمَ منه!

أعلام الأَدَب

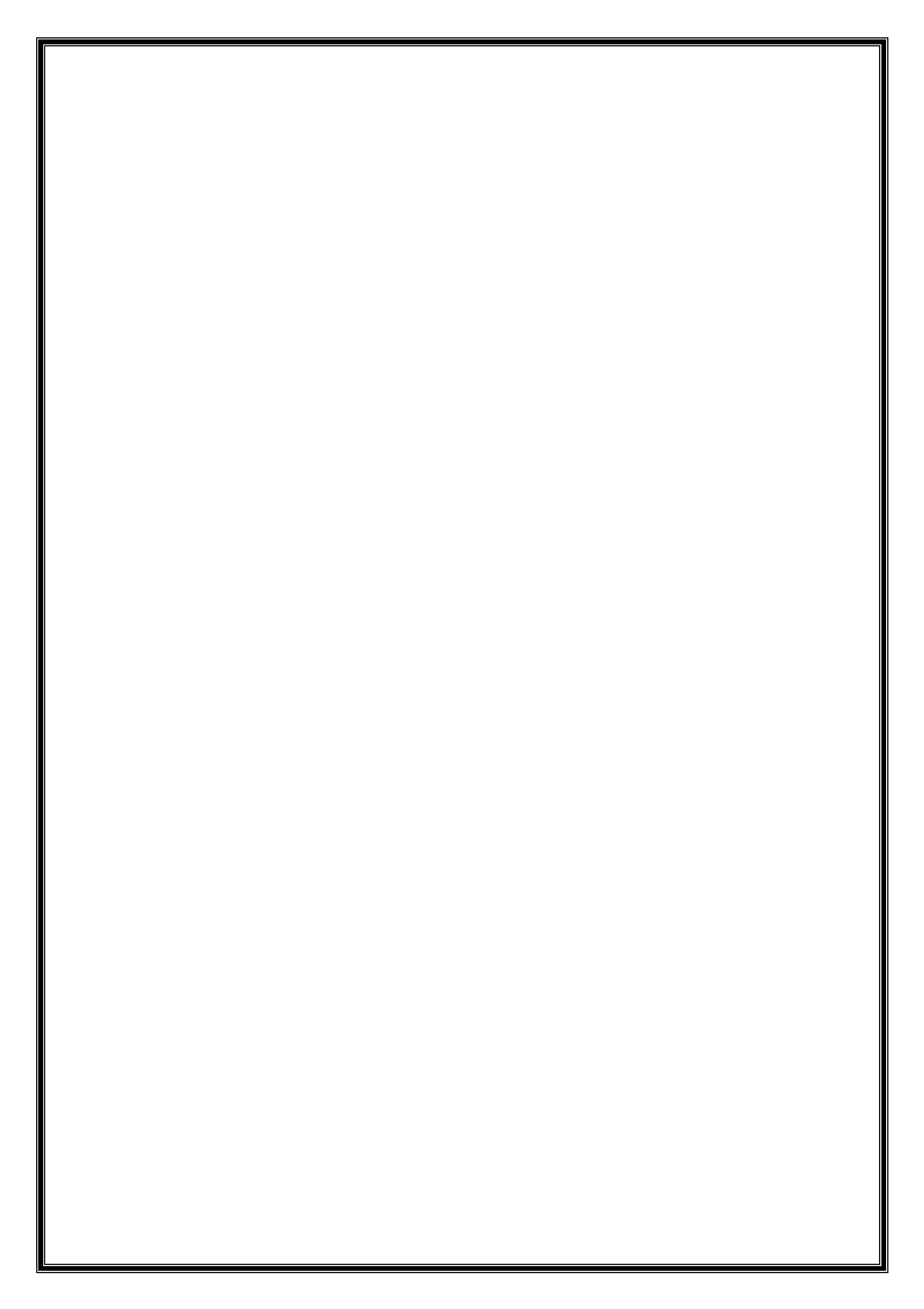
(١) عَنْتَرة فارس الصّحراء

(٢) حَسَّان شاعر النبيّ ﷺ

(٣) الجاحظ أمير البيان

(٤) المتنبي شاغل الناس

(٥) أحمد شوقي أمير الشّعراء



(١)

عَنْتَرَة فارس الصَّحْراء

في عَصْرِ يومٍ من أيامِ الخريف صَحِبَ الجدُّ حَفيديه إلى أرضٍ واسعةٍ كثيرةِ الحَصى والرِّمال، قليلةِ الماءِ والأشجار، وجلسوا عندَ أحدِ أكوامِ الرَّمل ينظرون ويتعجّبون **فقال عمّار**: ماذا تُسمّى هذه الأرض يا جدّي؟

الجدّ: تُسمّى صَحْراء، وهي كما ترى أرضٌ مُنْبسطة، تَكْثُر فيها الرِّمال، ويعيشُ فيها البدو، وهي موطنُ العرَبِ الأوَّل.

فيها كانوا يَبْنُون خيامَهم، ويَرْعَون أغنامَهم وإبلَهم.

وفيها كان الفرسانُ يركبون خيولَهم، ويستعدّون للحربِ والغَزو.

وفيها كان الشُّعراءُ يُغنّون ويمرحون، ويقولونَ الشِّعر.

جمانة: وهل كان الشَّاعر عَنْتَرَة يعيشُ مع العرَبِ في الصَّحراءِ يا جدّي؟

الجدّ: نعمْ، كان عَنْتَرَة بن شدّاد يعيشُ معهم أيامَ الجاهلية، أي قبلَ أنْ يأتيَ الإسلام.

عمّار: أرجوكَ يا جدّي، حدِّثْنا عن عَنْتَرَة، عن شكلِه، وصفاتِه، وحياتِه، فأنا أحبُّ عَنْترة، وأريدُ أنْ أكونَ مِثْلَهُ.

هيّا يا جدّي، حدّثنا، فأذناي تطربان لحديثِك، وشفتاي تُطْبِقان ولا تتحرّكان إذا تكلّمتَ، ورقبتي تمتدُّ نحوَك، وتقتربُ منكَ!

الجدّ: أبشرْ يا عمّار، أبشري يا جُمانة، ولنبدأ القصّة من أوّلِها:

ولدَ عَنْتَرة في الصَّحراء، ونشأ فيها، وكان أسودَ اللّون، مُفَلْفلَ الشَّعر، مَشْقُوقَ الشَّفة، طويلَ الجسم، قويَ العضلات، وكان يبدو لشدّةِ سوادِه كأنّه غُراب!

كان أبوه "شَدَّاد" من أشرافِ قبيلةِ عَبْس، أي كان قائداً من قادتِهم، أمّا أُمُّه فكانتْ حَبشيّة، يُقال لها "زَبيبة"، وقد وَرِثَ عنها سوادَهُ.

رعى عنترةُ الغنمَ والإبلَ مدّةً طويلة، وتعلّمَ ركوبَ الخيل، والضَّرْبَ بالسّيف، ومبارزةَ الفرسان، ولكنّه لم يكنْ يشارك في الحروب؛ لأنّه كان عَبْداً، ولم يكنْ حُرّاً.

في أحدِ الأيام أغارَ لصوصٌ على قبيلةِ عَبْس فأخذوا ما وجدوا من غنمٍ وإبل، فقال له أبوه شدّاد: "كُرّ يا عَنْتَرة، وأنتَ حُرّ". أي تقدّمْ والحقْ باللصوص، وأعِدْ ما سرقوا من الغنمِ والإبل، وستكونُ حُرّاً طليقاً لا يتحكّمُ في حياتِك أحد.

وركبَ عَنْتَرةُ حصانَهُ، وسلَّ سيفَهُ، ولحقَ باللصوص، فلمّا رأوه خافوا منه وهربوا، وتركوا الغنمَ والإبل، فعادَ بها إلى قبيلتِه، واستقبله الناسُ بالهُتافِ والزَّغاريد، وصار حُرّاً طليقاً بعدَ تلك الحادثة!

كان عنترةُ العَبْسِيّ فارساً شجاعاً، قويَ القلب، عاليَ الهمّة، يبارزُ الفرسان فيصرعُهم، ويخوضُ المعارك، وينتصرُ فيها، حتى طارتْ شهرتُه بينَ الناس.

وما زالتْ سيرتُه حيّةً في أذهانِ العَربِ إلى أيامِنا هذه، فإذا أرادوا أنْ يصفوا إنساناً بالشجاعةِ شبّهوهُ بعنترة، فعنترةُ هو المَثَلُ الأعلى عندَهم في الشّجاعةِ والبطولة.

وكان عنترةُ العبسيّ شاعراً، يقولُ كلاماً جميلاً في الفخرِ بنفسِه وشجاعتِه، وفي وصفِ الصَّحْراء، وفي مَدْحِ حصانِه وسيفِه.

اسمعا ما يقولُ عن الشَّجاعةِ وعزّةِ النفس:

حَكِّمْ سُيوفَكَ في رِقابِ العُذَّلِ ... وَإذا نَزَلتَ بِدارِ ذُلٍّ فَارْحَلِ

وَإذا الجَبانُ نَهاكَ يَومَ كَريهَةٍ ... خَوفاً عَلَيكَ مِنَ اِزدِحامِ الجَحْفَلِ

فَاعِصِ مَقالَتَهُ وَلا تَحْفِلْ بِها ... وَاقدِم إذا حَقَّ اللِّقا في الأَوَّلِ

وَاِختَرْ لِنَفسِكَ مَنْزِلاً تَعلو بِهِ ... أَو مُتْ كَريماً تَحْتَ ظِلِّ القَسْطَلِ!

إنّه يقولُ: عليكَ أنْ لا تسمعَ لكلامِ مَنْ يلومُك في الشَّجاعة، وإذا شعرتَ بالتعاسةِ والمهانة فارحلْ إلى مكانٍ آخر تجد فيه السَّعادةَ والاحترام.

وإذا أحدُ الجبناءِ الخائفين قالَ لكَ: لا تشارِكْ في المعركةِ خوفاً عليكَ من جيشِ الأعداء، فلا تطعْهُ، ولا تهتمّ بقولِه، وتقدّمْ في أوّلِ الصُّفوف، وقاتِلِ الأعداء.

وعليكَ أنْ تسعى إلى المجدِ والمكانةِ العاليةِ بينَ الناس، ولا تَقْبَلْ بالذلّ، ولا تسمحْ لأحدٍ أنْ يتحّكمَ في حياتِك، والموتُ في المعركةِ أشرفُ لك وأكرمُ من العيشِ الذليل.

واسمعا ما يقولُ عن فخرِه بنفسِه وسيفِه ورُمْحِه:

إِن كُنتُ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمَّتي فَوقَ الثُرَيّا وَالسِماكِ الأَعْزَلِ

وَبِذابِلي وَمُهَنَّدي نِلتُ العُلا لا بِالقَرابَةِ وَالعَديدِ الأَجْزَلِ

لا تسقني ماءَ الحياةِ بذلّةٍ بل فاسْقِني بالعزِّ كأسَ الحنظل!

إنّه يقول: إذا كنتُ من العبيد فإنَّ لي نفساً شُجاعةً عاليةَ الهمّة تصلُ إلى الكواكب، فنفسي عاليةٌ عُلوّ النجومِ والكواكبِ في السَّماء.

وقد حصّلتُ هذه المكانةَ العاليةَ برمحي وسيفي، وليس بالقرابةِ والعشيرةِ الكثيرة.

وهو لا يريدُ العيشَ الحُلو مع الحياةِ الذليلة، بل يفضّلُ الحياةَ المرّة معَ عزّةِ النفس.

والحَنْظَل نبتٌ ثمرتُهُ في حَجْم البرتقالة، فيه لُبٌّ شديدُ المرارة.

وكان عَنْترة صاحبَ أخلاقٍ طيبة، كان كريماً يقدّمُ ما عندَهُ من طعامٍ للضيوف، وكان صبوراً يتحمّلُ الشَّدائدَ والمشاقّ، وكان يحافظُ على عهدِه، ويحمي جارَهُ.

وقد عبَّرَ عن أخلاقِه فقال:

أَثْني عَلَيَّ بِما عَلِمْتِ فَإِنَّني سَمحٌ مُخالَقَتي إِذا لَم أُظْلَمِ

وَإِذا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلمِيَ باسِلٌ مُرٌّ مَذاقَتَهُ كَطَعمِ العَلْقَمِ!

يقول: إنّه طيّبُ المعاملة، حَسَنُ المعاشرة، لا يَظْلم، ولا يحبُّ الظُّلم،

فإذا ظلمَهُ أحدٌ من الناس فإنّه لا يطيقُ هذا الظلمَ الكريهَ المرّ، وسرعانَ ما يتحوّلُ كالرّيحِ الشَّديد، فيهبّ على الظالم، ويدمّرُه ويذيقُه مرارةَ ظلمِه.

وكان عَنْترة عفيفَ النفس، غيرَ طمّاع، لا يأخذُ شيئاً من غنائمِ الحرب؛ لأنّه لم يحاربْ من أجلِها، بل يحاربُ ليكسبَ لقومِه شرفَ الانتصار:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّني   أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المِغنَمِ!

وقد أحبَّ عَنْترةُ ابنةَ عمِّه "عَبْلَة" حُبّاً طاهراً عفيفاً، وكان يذكرُها، وهو في ساحاتِ القتال، والسّيوفُ تُجرّحُ جسمَهُ، فيقطرُ منه الدَّم، ولكنّهُ إذا ذكرَ "عَبْلَة" يتحوّلُ إلى أسدٍ عنيفٍ يهجمُ على الأعداء، وينتصرُ عليهم:

ولقدْ ذَكَرْتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ   مِنّي وبيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ من دَمِي!

ولما فرغَ الجدُّ من حكايةِ عَنْتَرة، ودنَتِ الشمسُ للمغيب، وقفَ عمّار على صخرةٍ في الصّحراء، وراحَ يتمثّلُ شخصيةَ عنترة، ويردّدُ قصيدتَهُ، والجَدُّ وجمانةُ يضحكان:

حَكِّمْ سُيوفَكَ في رِقابِ العُذَّلِ   وَإِذا نَزَلتَ بِدارِ ذُلٍّ فَارحَلِ!

(٢)
حَسَّان شاعر النبيّ ﷺ

فيِ إحدى الليالي المقْمِرة دخلَ عمّار وجُمانة على الجدّ، وكان يُقلِّبُ بينَ يديه ديوانَ شِعْر لواحدٍ من الشُّعراء الذين يُحبُّهم، ويُكثرُ من مطالعةِ أشعارِهم، **فقالت جمانة:**

- لِمَنْ هذا الكتاب الذي بينَ يديك يا جدّي؟

الجدّ: هذا ديوانٌ يشتملُ على قصائدِ الشّاعر المعروف حسَّان بن ثابت.

عمّار: شاعر معروف؟ مَنْ يعرفُهُ غيرك يا جدّي؟

الجدّ (وهو يبتسم): يعرفُه أهلُ اللغةِ والأدبِ وطلبةِ العلم، فقد كانَ حسّان بن ثابت شاعراً من شعراءِ الجاهلية، وكان يسكنُ "يَثْرب" التي سُمِّيتْ بعد ذلك بالمدينة، وكان لسانَ قومِه، يدافعُ عنهم بشعرِهِ، ويهجو أعداءَهم، ويتحدّى الشُّعراءَ في سُوقِ "عُكاظ"!

وكان يمدحُ الملوك، ويتقرّبُ إليهم، ويتكسّبُ بشعره، أي يأخذُ الأموال على القصائدِ التي يُلقيها أمامَهم!

جمانة: وهل بَقِيَ حسّانُ على جاهليتِه، أم دخلَ في الإسلام؟

الجدّ: بل دخلَ في الإسلامِ لما هاجرَ الرّسولُ ﷺ إلى المدينة، وله بالرَّسول ﷺ صِلَةٌ وقَرابة، فهو من بني النّجار أخوالِ الرّسول ﷺ.

ولقيَ حَسّان بن ثابِت رسولَ الله، وتعلّمَ منه القرآن، وعرفَ أحكامَ

الإسلام من وضوءٍ وصلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وحجّ، حتى صارَ من الصَّحابة المعروفين.

عمّار: وهل تركَ حسّان الشِّعرَ بعدَ إسلامِه؟

الجدّ: لا.. لم يترك الشّعر، بل وجَّهَ شعرَهُ للدفاعِ عن الرَّسول ﷺ، وخدمةِ الإسلام، ومَدْحِ الصَّحابةِ الكرام، دافعَ مدّةَ ستين سنة، حتى سُمِّيَ شاعرَ النبيّ، وشاعرَ الإسلام.

وكان النبيّ ﷺ يضعُ له مِنْبراً في المسجدِ يقفُ عليه، وينشدُ الشِّعر، والناسُ حولَهُ يسمعون، ويهزّون رؤوسَهم إعجاباً بما يقول!

جمانة: ماذا كانَ يقولُ يا جدّي، وهو على مِنْبَرِ الشِّعر؟

الجدّ: كان يردُّ على الشّعراءِ الكفّار من اليهودِ وأهلِ قُريش الذين كانوا يهجون النبيّ ﷺ، ويطعنون في الإسلام، ويشتمونَ الصّحابة، ويتعرَّضون لنساءِ المسلمين بالكلامِ الفاحشِ السَّاقط.

جاءَ في الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ "أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ: حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الأَدِيمِ".

ومعنى كلامِ حسّان: إنّني أسَدٌ شُجاع، وسوف أسلخُ جلودَهم عن عظامِهم بِشِعْري وهجائي، كما يُسلخُ جِلْدُ الشَّاة.

ومعنى أدلعَ لسانَهُ: أي أخرجَهُ من فمِهِ، وجعلَهُ يتدلى.

فقَالَ حَسَّانُ يهجو أحدَ شعراءِ قُريش:

هَجَـوْتَ مُحَمَّـداً فَأَجَبْـتُ عَنْـهُ وَعِنْـدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الجَـزَاءُ

هَجَـوْتَ مُحَمَّـداً بَـرًّا تَقِيًّـا رَسُـولَ اللَّهِ شِيمَتُـهُ الوَفَـاءُ

فَـإِنَّ أَبِـي وَوَالِـدَهُ وَعِرْضِـي لِعِـرْضِ مُحَمَّـدٍ مِـنْكُمْ وِقَـاءُ

ومعنى كلامِ حسّان: أيّها الشاعرُ الكافر، إنّك قد هجوتَ رسولَ الله محمّداً وشتمتَهُ، وأنا أردُّ عليك، وأرجو الثوابَ من اللهِ تعالى.

وإنّكَ قد هجوتَ إنساناً عظيماً كاملَ الأخلاق، ومن أخلاقِه كثرةُ خيرِه، وتقواه، وحسنُ وفائِه، ومعاملتِه للناس.

وأنا أفتدي رسولَ الله ﷺ بأبي وجدّي وأولادي وأهلِ بيتي، وأجعلُهم فِداءً كالحصن المنيعِ لرسولِ الله ﷺ وأهلِه وأصحابِه.

ثمّ يقول حسّان:

وَقَـالَ اللَّهُ قَـدْ أَرْسَـلْتُ عَبْـداً يَقُـولُ الحَـقَّ لَـيْسَ بِـهِ خَفَـاءُ

وَقَـالَ اللَّهُ قَـدْ يَسَّـرْتُ جُنْـداً هُـمُ الأَنْصَـارُ عُرْضَـتُهَا اللِّقَـاءُ

يقول: إنَّ اللهَ قد أرسلَ إلى الناسِ محمّداً نبيّاً ورسولاً، أرسلَهُ بدينٍ يُسْعدُهم؛ لأنّه الحقُّ الواضحُ وضوحَ الشَّمس، لا يخفى على أحد.

وإنَّ اللهَ تعالى قد جعلَ معَ هذا النبيّ الكريمِ جنوداً مُستعدّين لمواجهةِ الكفّار ولقائِهم، وهم الأنصارُ أهلُ المدينةِ الذي استقبلوه، وأكرمُوه، وأكرموا أصحابَهُ المهاجرين.

فلمّا ردَّ عليهم حسّانُ وهجاهم رضيَ النبيّ ﷺ بما فعلَ وقال: "هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى".

أي شَفَى صُدورَ المسلمين وأراحَها، وثأرَ من شعراءِ المشركين، وانتقمَ منهم.

عمّار: وماذا قالَ حسّانُ لما توفيَ النبيّ ﷺ ؟

الجدّ: حَزِنَ حسّانُ حُزْناً شديداً يومَ توفيَ النبيّ ﷺ، فقال يرثيه، ودموعُ عينيه الغِزار تسيلُ على خدّيه:

بَطَيبَةَ رَسْمٌ لِلرَسولِ وَمَعهَدُ   مُنيرٌ وَقَد تَعفو الرُسومُ وَتَهْمَدُ
بِها حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وَسْطَها   مِنَ اللَهِ نورٌ يُستَضاءُ وَيوقَدُ

يقول: بطيبةَ أي في المدينة المنورة مكانٌ معروفٌ للرسولِ ﷺ، ومسجدٌ كان يعلّمُ فيه أصحابَهُ، وذكرياتٌ عظيمةٌ لنْ ينساها الناس، ولن تُمْحى تلك الأماكن.

وفي المدينةِ توجدُ بيوتُ النبيّ ﷺ التي يتنَزّلُ فيها الوحيُ من السَّماء، وينتشرُ منها نورُ القرآنِ إلى كلِّ مكانٍ في الأرض.

إِمامٌ لَهُم يَهديهِمُ الحَقَّ جاهِداً   مُعَلِّمُ صِدقٍ إِن يُطيعوهُ يَسْعَدوا
عَفُوٌّ عَنِ الزَلّاتِ يَقبَلُ عُذرَهُم   وَإِن يُحسِنوا فَاللَهُ بِالخَيرِ أَجوَدُ

يقول: إنَّ النبيَّ ﷺ هو إمامٌ عظيمٌ يهدي إلى دينِ الحقّ، وهو معلّمُ الأخلاقِ الكريمةِ كالصّدق، وإذا أطاعَهُ الناسُ فسوف يجدون السَّعادةَ في

الدنيا والآخرة.

وإنَّ هذا النبيَّ ﷺ يسامحُ ويصفحُ عن كلِّ زلّة، ويقبلُ عُذْرَ مَنْ يعتذر، وإذا أحسنَ الناسُ إلى بعضِهم، وعملوا الخير، فإنَّ اللهَ تعالى سوف يزيدُهم من الخيرِ والبَرَكة.

وَما فَقَدَ الماضونَ مِثلَ مُحَمَّدٍ   وَلا مِثلُهُ حَتّى القِيامَةِ يُفقَدُ!

يقول: ما عرفَ الناسُ كالنبيّ ﷺ إنساناً خَلوقاً، وقائداً محبوباً، ومُربياً فاضلاً، وما حَزِنَ الناسُ على إنسانٍ ماتَ في الزَّمنِ الماضي كما حَزِنُوا على النبيّ ﷺ، ولنْ يحزنوا على أحدٍ إلى يومِ القيامة كما حَزِنوا على النبيّ ﷺ، وما فقدوا إنساناً في الزّمنِ القديم أو الحديث كما فقدوا النبيّ ﷺ.

جمانة: ماذا فعلَ حسّانُ بعدَ وفاةِ النبيّ ﷺ؟

الجدّ: ظلَّ يقولُ الشّعر، ويدافعُ عن الإسلام، ويتغنّى بالفتوحاتِ الإسلامية، وكان الخلفاءُ الرَّاشدون (أبو بكر، وعُمر، وعثمان، وعليّ ﷺ) يحترمونه، ويُكرمونه.

وقد أُصيبَ حسّان بن ثابت ﷺ بالعَمَى في آخرِ عُمرِه، وظلّ صابراً حتى توفّاهُ اللهُ تعالى سنة (٥٤هـ) في خلافةِ معاوية ﷺ بعدَ أنْ عاشَ أكثرَ من مائةِ سنة.

(٣)

الجاحِظ أمير البَيان

نَهضَ عمّار مُبكّراً، وصلّى الفجرَ مع جدِّه الخليل، وفي طريقِ عودتِهما إلى البيت كان عمّار يقفزُ أمامَ جدِّه، ويمشي خلفَهُ، وعن يمينِه، وعن شِمالِه.

ثمَّ تذكّرَ عمّار شيئاً فقال لجدِّه:

كنتَ البارحةَ يا جدّي، ونحنُ عندَ صديقِك، تكثرُ من ذِكْرِ الجاحِظ، وكنتَ تقول: قالَ الجاحظ، وروى الجاحظ، وهذا عندَ الجاحظ، فَمَنْ هذا الجاحظ الذي ذكرتَهُ في مجلسِكَ أكثرَ من خمسين مرّة؟ أهو مَلِكٌ، أم أمير، أم وزير؟

الجدّ: يا بُنيَّ يا عمّار، الجاحظُ كاتبٌ كبير من الكُتّاب العرَب، له كتبٌ كثيرة تزيدُ على مائةِ كتاب، من أشهرِها: البُخَلاء، والبَيَان والتَّبيين، والحيَوان.

واسمه عَمْرو بن بَحْر، ولُقِّبَ بالجاحظ؛ لجحوظِ عينيه، أي لبروزِهما واتساعِهما، وكان قبيحَ المنظر، ولكنَّهُ كان ذكيّاً مجتهداً في طَلَبِ العِلْم.

عمّار: حدّثني كيفَ كان مجتهداً في طَلَبِ العِلْم؟

الجدّ: كان الجاحظُ يعيشُ في مدينة "البَصْرة" بالعراق، وكانت البَصْرةُ مدينةَ العلمِ والأدب، فيها عددٌ كبيرٌ من المعلّمين والأساتذةِ والعلماء.

وقد أقبلَ في صِغَرِهِ على تعلُّمِ القرآن والحسابِ والشِّعر، ثمّ لما كَبِرَ مضى إلى المساجدِ يستمعُ إلى دروسِ العلماءِ فيها، فكان يحفظُ كُلَّ ما يسمعُهُ من قرآنٍ وحديثٍ وأدب.

وكان يذهبُ إلى سُوقِ "المِرْبَد" يسمعُ إنشادَ الشُّعراءِ فيه، ويتعلّمُ اللغةَ العربيةَ من فصحاءِ الأعراب، والأعرابُ هم البدو الذين كانوا يسكنون الصَّحْراء، ويعرفون اللغةَ أحسنَ المعرفة.

وكان يحبُّ القراءة، ويقرأُ في اليوم الواحد أكثرَ من كتاب، وكان يَبيتُ في دكاكين الورّاقين أي أصحاب المكتبات، ويقرأُ طوالَ الليلِ على ضوءِ السِّراج.

قال عنه واحدٌ من العلماء: "لم أرَ قطّ، ولا سمعتُ مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ من الجاحظ؛ فإنّه لم يقعْ بيدِهِ كتابٌ قطّ إلا استوفى قراءتَهُ كائناً ما كان"!

وكان الجاحظ ذكيّاً جدّاً، يحفظُ الصَّفحاتِ التي تراها عينُهُ، كأنّه آلةُ تصوير، وتبقى المعلوماتُ في ذاكرتِه وقتاً طويلاً.

عمّار: وهل كان للجاحظِ عملٌ يعيشُ منه؟

الجدّ: كان الجاحظُ في صِغَرِهِ يبيعُ الخبزَ والسَّمَك، وكانت أمُّهُ فقيرة، فجاءَ إليها ذاتَ يوم يطلبُ منها غداء، فقدّمتْ له مجموعةً من أوراقِ الكتبِ في صَحْن، وقالتْ له: خُذْ كُلْ ما عندي غير هذهِ الأوراق!

فذهبَ إلى المسجدِ مهموماً، ولقيَهُ صديقُه في الدّراسة "مُوَيْس بن عِمْران"، وكان من عائلةٍ غنية، وأعطاهُ خمسين ديناراً، فأخذَها فَرِحاً، ودخلَ السّوق، واشترى لأمِّهِ الطَّعام!

ولما كَبِرَ الجاحظُ وصار معروفاً بحسنِ كتابتِه عَمِلَ كاتباً عندَ الخليفة، وأصبحَ له راتبٌ يعيشُ منه، وكان الخلفاءُ والوزراءُ يعطونه هدايا كثيرةً تقديراً له ولِكُتبِه القيّمة.

عمّار: لماذا يا جدّي،كنتَ تقولُ عن الجاحظ إنّه أميرُ البَيانِ والبلاغةِ والفصاحة؟

ألا يوجد مِنْ أدباءِ اللغةِ العربيّة مَنْ يتفوّقُ عليه؟

الجدّ: يا بُنيَّ، الجاحظُ هو أكبرُ كاتبٍ ظهرَ في العصرِ العبّاسي، وأكبرُ كاتبٍ ظهرَ في اللغةِ العربيّة؛ لأنّه كتبَ أكثرَ من مائةٍ وخمسين كتاباً، وشهدَ له العلماءُ والأدباءُ بالتفوّق، وقالوا: "إنَّ كُتبَ الجاحظِ تعلّمُ العقلَ أوّلاً، والأدبَ ثانياً".

أي تُعلّمُ الإنسانَ كيفَ يفكّر، وكيفَ يستعملُ عقلَهُ، ثمّ تُعلّمُه الكلامَ الحُلو الجميل.

والجاحظُ صاحبُ أسلوبٍ رائعٍ في الكتابة، إذا قرأتَ له فإنّك ستستمتع، وتطرب، وتضحكُ كثيراً، وخاصّةً إذا قرأتَ المناظرةَ بين الكلبِ والدّيكِ في كتابِه "الحيَوان"، أو قرأتَ قصصَ البُخلاءِ في كتابِه "البُخلاء"!

عمّار: أرجوك يا جدّي، اقصصْ عليّ من حكاياتِ الجاحظِ التي ذكرَها في كُتبِه، فقد شوّقتني إلى صاحبِك أميرِ البَيان جاحظِ العصرِ العبّاسي، وجاحظِ هذا الزّمان!

الجدّ: أبشرْ يا عمّار، أبشرْ.

حكى الجاحظُ قال:

يقولُ البخيلُ للضيفِ إذا جاءَهُ، وللجليسِ إذا طالَ جلوسُهُ: هل تغدّيتَ اليوم؟

فإنْ قال الضيفُ: نعمْ، قد تغدّيت.

قال البخيلُ: لولا أنَّك تغدّيتَ لغدّيناك!

فإنْ قال الضيفُ: لا، ما تغدّيت.

قال البخيلُ: لو أنّك تغدّيتَ لأسقيناكَ عصيراً.

فلا يصيرُ في يدِ الضيف على الوجهين قليلٌ ولا كثير!

وحكى الجاحظُ قالَ:

"ما أَخْجلتني إلا امرأةٌ مرّتْ بي إلى صائغ، فقالت له: اعملْ مثلَ هذا، فبقيتُ مبهوتاً، ثمَّ سألتُ الصّائغَ فقال: هذه امرأةٌ أرادتْ أنْ أعملَ لها صورةَ شيطان، فقلتُ: لا أدري كيف أصوِّرُه؟ فأتَتْ بك لأصوِّرَهُ على صُورتِك"!

ومعنى القصّة: أنَّ الجاحظَ كان يسخرُ من كلّ شيء، ويتندّرُ حتى على نفسِه وشكلِه القبيح، ففي أحدِ الأيامِ ذهبتْ امرأةٌ إلى صائغ (أي

رجل ينقشُ الصُّور ويرسمُها على خواتم الذهب)، وقالتْ للصائغ: أريدُ أنْ تصوّرَ لي صورةَ شيطانٍ على خاتمي، فقال الصائغ: لا أدري كيف أصوّرُه؟ فما رأيتُ في حياتي صورةَ شيطان!

فجاءت المرأةُ إلى الجاحظ، فأخذتْهُ إلى الصائغ، وتعجّبَ الجاحظُ: ماذا تريدُ المرأةُ منه؟ فسأل الجاحظُ الصائغ، فقال الصَّائغ: هذه المرأةُ تريدُ أنْ أُصوِّرَ لها الشيطان على صُورتِك؛ لأنَّ شكلَكَ قبيحٌ جدّاً يشبهُ شكلَ الشيطان!

وحكى الجاحظُ قالَ:

"تعجَّبَ أخٌ لي منْ خُبْثِ الثَّعلبِ، وكانَ صاحبَ قَنْصٍ، وقالَ لي: ما أعجبَ أمرَ الثّعلبِ يَفْصِلُ بين الكلبِ والكَلاّبِ، فيحتالُ للكَلاّبِ بما يعلمُ أنَّه يجوزُ عليه، ولا يحتالُ مثلَ تلك الحيلةِ للكلبِ؛ لأنَّ الكلبَ لا يخفى عليه الميّتُ من المغشيّ عليه، ولا ينفعُ عندَهُ التَّماوتُ. قال: وذلك أنّي هَجَمْتُ على ثَعْلبٍ في مضيقٍ، فإذا هو ميّتٌ مُنْتَفخٌ، فصددتُ عنه، فلم ألبثْ أنْ لحقتْني الكلابُ، فلمّا أحسَّ بها وثبَ كالبَرْقِ".

ومعنى القصّة: أنّ صديقاً للجاحظ تعجّبَ من مَكْر الثعلب، وأنّه يخدعُ الإنسانَ إذا اقتربَ منه، وينفخُ جسمَهُ، ويُظْهرُ أنّه ميّت، فإذا ذهبَ الإنسانُ قامَ الثعلبُ وهرب!

والعجيبُ أنّ الثعلبَ يستطيعُ أنْ يخدعَ الإنسان، ولا يستطيعُ أنْ يخدعَ الكِلاب؛ لأنّها تعرفُ مَكْرَهُ، وتكشفُ خِداعَهُ.

وقال صديقُ الجاحظ إنّه وجدَ ثعلباً ذاتَ يومٍ في وادٍ ضيّق، فظنَّ أنّه ميّت، فتركَهُ، ثمّ جاءت الكِلاب، واقتربتْ من الثعلب، فلمّا أحسَّ بها قفزَ مسرعاً كالبَرْق!

عمّار: رحمَ الله الجاحظُ يا جدّي، فقد كان حقّاً أميرَ البيانِ والبلاغةِ والكلام!

الجدّ: رَحِمَهُ الله، وَرَحِمَ علماءَ العربيّةِ وأدباءَها.

(٤)

المتنبي شاغِل الناس

كانتْ جمانة تُعِدُّ الطعام، وتروحُ وتجيءُ في المطبخ، وهي تتغنّى بهذا البيت:

على قَدْرِ أهلِ العَزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ!

فسمعَها جدُّها، فلمّا وضعَتِ الطعام، وجلسوا يأكلون، **قال الجدّ**:

- أتعرفين يا جمانة، لِمَنْ هذا البيت؟

جمانة: لا أعرفُ يا جدّي.

الجدّ: وأنتَ يا عمّار، أتعرفُ لِمَنْ البيت؟

عمّار: لا أعرفُ يا جدّي، لعلّه للشاعرِ الفارسِ عَنْتَرة.

الجدّ: بل هذا البيتُ للشاعرِ الفارسِ أبي الطيّبِ المتَنبي.

جمانة: ومَنْ هو أبو الطيّبِ المتنبي؟

الجدّ: إنّه الشاعرُ العبَّاسيُّ الكبير الذي ملأَ الدنيا، وشَغلَ الناس، إنّه أحمدُ بنُ الحسين، المعروف بأبي الطيّبِ المتنبي.

عمّار: وأينَ نشأ شاعرُنا الكبير الذي شغَلَ الناسَ بشعرِه؟

الجدّ: ولدَ المتنبي في مدينةِ "الكُوفة" بالعراق، ونشأ بالشَّام، ثم تنقّلَ في الباديةِ يطلبُ اللغةَ والأدب، ويتعلّمُ من فصحاءِ الأعراب حتى قال الشِّعر، وهو صبيٌّ صغير.

جمانة: لماذا لُقِّبَ بالمتنبي؟ هل ادّعى أنّه نبي مثل الأنبياءِ الذين أرسلَهُم اللهُ تعالى؟

الجدّ: لُقِّبَ بالمتنبي؛ لأنّه كان يُشبّهُ نفسَهُ بالأنبياء، وذلك في قولِه:

ما مُقامي بأرضِ نخلة إلا كمُقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ

أنا في أُمّةٍ تداركَها اللهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ!

فهو يشّبه نفسَهُ بالمسيحِ عيسى عليه السلام، ويشبّه نفسَهُ بصالحٍ عليه السلام.

وقيلَ إنّه لُقِّبَ بالمتنبي لتفوّقِه ونبوغِه في الشِّعر.

عمّار: وماذا كان من أمْرِ المتنبي بعدَ ذلك؟ حدّثنا عن قصّةِ حياته.

الجدّ: سمعَ المتنبي بأنَّ في مدينةِ "حَلَب" أميراً شُجاعاً يحاربُ الرُّوم، وينتصرُ عليهم، ويقرّبُ العلماءَ والشّعراء، حتى قامتْ في إمارةِ حلب نهضةٌ علميةٌ وأدبيةٌ رائعة، وأنَّ هذا الأمير يقالُ له "سَيْف الدولة".

توجَّهَ المتنبي نحوَ سيفِ الدولة، فأكرمَهُ أحسنَ الإكرام، ووفّرَ له المال، وجعلَهُ يلتقي بالعلماءِ والأدباءِ والشُّعراءِ من أمثال: الفارابي، وابن جِنّي، وأبي علي الفارسيّ، والشَّاعر أبي فراس الحَمْداني ابنِ عمِّ سيفِ الدّولة.

وعاشَ المتنبي في قَصْرِ سيفِ الدّولة مُكرّماً مُنعّماً، وكان يرافقُ سيفَ الدولةِ في معاركِه وأسفارِه، وقد مدحَهُ المتنبي بقصائدَ كثيرةً رائعةً منها القصيدةُ التي قالها في وصفِ معركةِ "الحَدَث الحمراء" التي انتصرَ فيه سيفُ الدَّولةِ على الرّوم، قال المتنبي:

عَلى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ وَتَأتي عَلى قَدْرِ الكِرامِ المكارِمُ

أي: يا سيفَ الدّولة أنتَ صاحبُ قوّةٍ وعزيمة، ولذلك انتصرْتَ في المعركة، وأنتَ كريم، ولذلك غلَبْتِ الرُّوم، وأهديتَ إلى الأمّةِ هذا النصر.

وكان المتنبي يحبُّ سيفَ الدّولة، ويُعجبُ بشجاعتِه وبطولتِه، ويقولُ للأعداء: لا تغتروا بكثرةِ جيوشِكم، وكثرةِ أسلحتِكم، فعلي بن حَمْدان أي سيف الدولة يشربُها ويأكلُها، أي يقضي عليها، ولا يُبْقي منها شيئاً كالجائعِ الذي يأكلُ كُلَّ ما في الصَّحن:

أَغَـرَّكُمُ طـولُ الجُيـوشِ وَعَرْضُـها   عَلِـيٌّ شَـروبٌ لِلجُيـوشِ أَكـولُ

وكان المتنبي يُعجبُ بنفسِه وشِعْرِه، ويحسُّ أنّه مُتميّز، ولذلك كان يَقْسِمُ القصيدةَ قِسْمين: قِسْماً يمدحُ فيه سيفَ الدولة، وقِسْماً يفتخرُ فيه بنفسِه، وكان يحبُّ أنْ يكونَ حاكماً على منطقةٍ من المناطق، وأميراً له إمارةٌ مثل سيفِ الدَّولة.

ثمّ بعدَ تسعِ سنوات عاشَها عندَ سيفِ الدَّولة رحلَ إلى مصر، ومدحَ حاكمَها "كافوراً الإخشيديّ" بقصيدةٍ مطلعُها:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى الموتَ شافِيا   وَحَسـبُ المنـايا أَن يَكُـنَّ أَمانِيـا!

يقولُ: إنّك لا تخافُ من الموت، بل تتمنّاه؛ لأنّك بَطَل، ولأنَّ الموتَ في سبيل الله شهادة. ثمَّ طلبَ المتنبي من كافور أنْ يعطيَهُ إمارة، فلم يُعْطِه شيئاً، فغضبَ أبو الطيّب، وهجاهُ قائلاً:

لا ـ تشـترِ العبـدَ إـلا والعَصـا معَـهُ   إنَّ العبيــدَ لأنجــاسٌ مناكيــدُ!

والمعنى أنَّ المتنبي يصفُ كافوراً بأنّه عبد، وليس حُرّاً، وأنّه يستحقُّ الضَّرْبَ بالعصا؛ لأنّ نجسٌ خبيث، ونَكِدٌ لئيم.

وقد حدَثَ أنْ أُصيبَ المتنبي بالحمّى (الملاريا)، فوصفَ هذا المرض، وشبّهَهُ بامرأةٍ تزورُه في الليل، ويقدّمُ لها الفراش؛ لتجلسَ عليه، فتأبى وترفض، وتبيتُ في عظامِه، وتوسّعُ جسمَهُ بأنواعِ الأمراضِ المختلفة، وتجرّحُه بالألم، كأنّما هو في معركة، والسيوفُ تصيبُهُ من كُلِّ جهة:

وَزائِـــرَتي كَـــأَنَّ بِهـــا حَيـــاءً   فَلَـيسَ تَـزورُ إِلّا في الظَّـلامِ

بَـذَلتُ لَهـا المِطـارِفَ وَالحَشـايا   فَعافَتهـا وَباتَـت فـي عِظـامي

يَضـيقُ الجِلـدُ عَـن نَفَسـي وَعَنهـا   فَتوسِعُـــهُ بِأَنـــواعِ السِّـــقامِ

جَرَحـتِ مُجَرَّحـاً لَمـ يَبـقَ فيـهِ   مَكـانٌ لِلسُيـوفِ وَلا السِّـهامِ!

ثمّ يهربُ المتنبي من مصر، ويَقْصِدُ العراقَ وبلادَ فارس، فيمدحُ الوزيرَ الأديب "ابن العَميد"، ويقول:

مَـنْ مُبْلِـغُ الأعْرابِ أنّي بعـدَهُمْ   شـاهدتُ رَسْطاليسَ والإسكندرا

ولقيـتُ كُـلَّ الفاضـلين كأنّمـا   ردَّ الإلـهُ نفوسَـهُم والأعْصُـرا

قطـفَ الرِّجـالُ القـولَ بعـد نباتِـه   وقطفـتَ أنـتَ القـولَ لمـا نَـوَّرا

وإذا سَـكَتَّ فـإنّ أبلـغَ خاطِـبٍ   قَلَـمٌ لـكَ اتّخـذَ الأصـابعَ مِنْبَـرا!

ومعنى كلامِه: مَنْ يخبرُ الأعرابَ أهلَ البادية أنّي قد رأيتُ العالِمَ اليوناني "رَسْطاطاليس"، ورأيتُ القائدَ العظيمَ "الإسكندرَ المقدونيّ"،

ورأيتُ كُلَّ الفضلاءِ والعلماء، رأيتُهم في هذا الرَّجل ابنِ العميد، فهو عالمٌ وقائد، لسانُهُ فصيح، وقلمُهُ بارعٌ في الكتابة، إنّه يجمعُ صفاتِ العظماء!

ثمّ خرجَ المتنبي من عندِ ابنِ العميد يريدُ بغداد، فتعرّضَ له في الطريق رجلٌ يكرهُهُ اسمُه "فاتك الأسَدي"، وكان معه جماعةٌ من أصحابِه، وكان مع المتنبي جماعةٌ أيضاً، فدارتْ معركةٌ بين الفريقين، وقُتِلَ أبو الطيّبِ المتنبي، وقُتلَ ابنُه "مُحَسَّد"، وقُتِلَ غلامُه "مُفْلح".

وكان مقتلُ المتنبي سنة (٣٥٤ هـ)، وقد بلغَ من العمر خمسين سنة.

رَحِمَ اللهُ المتنبي الشّاعرَ الحكيم، فقد كان مُحبّاً للعربيّة، واسعَ الثقافة، حُلو الكلمة.

(٥)

أحمد شوقي أمير الشّعراء

في صباحٍ مُشْرِقٍ من أَصْباحِ الطَّبيعةِ الجميلة صَعِدَ الجدُّ وحَفيداه على سطحِ الدّار، فصلّوا ركعتي الضّحى، ثمَّ نظروا حولَهم، فأدهشَهُم جمالُ الأزهار، وأصواتُ الأطيار، فأخذَ الجدُّ يردّدُ هذه الأبيات بصوتٍ جميل، وعمّارٌ وجمانةُ يردّدان وراءَهُ:

تلكَ الطبيعةُ قِفْ بنا يا ساري حتى أُرِيْكَ بديعَ صُنْعِ الباري

الأرضُ حولَك والسَّماءُ اهتزّتا لروائعِ الآياتِ والآثارِ

ولقد نَمُرُّ على الغديرِ تخالُه والنّبتَ مرآةٌ زَهَتْ بإطارِ

حُلْوُ التَّسَلْسُلِ مَوْجُهُ وخريرُ كأناملٍ مَرَّتْ على أوتارِ!

ولما فرغوا من النشيدِ **قال عمّار**:

- جدّي، لِمَنْ هذه الأبياتُ الحُلوة التي تتغنّى بالطبيعة، وتصفُ غديرَ الماء، وما حولَهُ من النباتاتِ الملوّنة كأنّه مرآةٌ لها إطارٌ مُزيّن مُزَرْكَش، وتصفُ جريانَ مائِه وعذوبةَ صوتِه بالأصابعِ التي تحرّكُ أوتارَ العُود! لِمَنْ هذه الأبياتُ الحُلوة؟

الجدّ: إنّها للشاعرِ أحمد شوقي أميرِ الشّعراء الذي يعرفُهُ الناسُ كُلُّهم.

عمّار: ولكنّني لا أعرفُهُ، فَمَنْ هو أحمد شوقي؟

جمانة: يا للأسف، أنتَ يا عمّار، قليلُ المطالعة، وفي مكتبةِ جدّي ديوانُ أحمد شوقي الذي سمّاه "الشَّوقيات"، وهو ديوانٌ كبيرٌ مؤلّفٌ من أربعةِ أجزاء.

عمّار: عفواً، يا جمانة، أريدُ أنْ أسمعَ من جدّي، فهو أعرفُ الناسِ بالشُّعراءِ والأمراء، تفضّلْ يا جدّي، حفظَكَ الله، واسْكُتي يا جُمانة!

الجدّ: يا عزيزي، يا عمّار، أحمد شوقي شاعرٌ مِصْريّ، ولدَ في مدينة "القاهرة" في هذا العصر، أي قبلَ مائةٍ وخمسين سنة، وعاشَ في قَصْر"الخديوي" حاكمِ مِصْر في ذلك الزَّمان، وسافرَ إلى فرنسا، وحصلَ على شهادةِ الحقوق، واطّلعَ على الأدبِ الفرنسيّ.

وتزوّجَ أحمد شوقي امرأةً غنية، ورُزِقَ منها ابنةً سمّاها "أمينة"، وابنين الأوّل اسْمُه "علي"، والثاني اسمه "حُسين".

قال في ابنتِه أمينة:

أَمينَـــةُ، يا بِنتِـيَ الغالِيَـهْ   أُهَنّيـــكِ بِالسَنَـــةِ الثانِيَـــهْ

وَأَسـأَلُ أَن تَسْـلَمي لي السِنينَ   وَأَن تُرزَقـــي العَقـــلَ وَالعافِيَـــهْ

أَتَـدرينَ مـا مَـرَّ مِـن حـادِثٍ   وَمـا كـانَ في السَـنَةِ الماضِـيَهْ

وَكَم بُلْتِ في حُلَلٍ مِن حَريرٍ   وَكَـم قَـدْ كَسَـرتِ مِـنَ الآنِيَـهْ!

إنّه يخاطبُ ابنتَهُ الطفلةَ أمينة، ويقدّمُ لها التهنئةَ بمناسبةِ بلوغِها السنة الثانية من عُمرِها، ويسألُ الله أنْ يبقيَها له، وأنْ يُعطيَها الفهمَ والذَّكاء، والصّحةَ والعافية.

ويقولُ لها: إنّكِ طفلةٌ صغيرةٌ لا تعرفين ما وقعَ من أحداثٍ في العامِ الماضي، ولا تعرفينَ كم مرّة تبوّلتِ على ملابسِك الحريرية الجميلة، وكم كَسَّرتِ من الأدوات!

عمّار: ولماذا لُقِّبَ أحمد شوقي بأميرِ الشُّعراء؟

الجدّ: أحمد شوقي شاعرٌ امتلكَ موهبةً عظيمةً في قولِ الشِّعر، وامتلكَ لغةً جميلةً عبّرَ بها عن المعاني، وامتلكَ خيالاً واسعاً، وعاطفةً مُتدفّقة، وحسّاً إنسانيّاً دقيقاً، حتى صارَ يقولُ الشِّعرَ كما يقولُهُ كبارُ الشِّعراءِ أمثال: عَنْترة، وحسّان، والمتنبي.

ونظمَ أحمد شوقي في أغراضِ الشِّعر كلِّها، نظمَ في المديح، والغَزَل، والرِّثاء، والوصف، وتناولَ الأحداثَ الاجتماعيةَ والسياسيّةَ في مصرَ والعالَم.

وله في الشِّعر ديوانٌ ضَخْم يُعْرَفُ بالشُّوقيات، وله مجموعةٌ من المسرحياتِ الشِّعرية مثل: كليوباترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعلي بك الكبير، وعَنْتَرة، والسّت هدى.

وله في النثر كتابُ "أسواق الذَّهب"، وله ثلاثُ رواياتٍ نثريّةٍ تاريخيّة.

وأصبحَ أحمد شوقي مشهوراً بشعرِهِ، فجاءتْ إلى القاهرةِ وفودُ الشُّعراءِ من البلادِ العربيّة تُبايعُهُ على إمارةِ الشِّعر. أي تُعاهِدُهُ على أنْ يتولّى إمارةَ الشِّعر، كما يبايعُ الناسُ الملوكَ والرُّؤساء والأمراء.

وكان ذلك في مَهْرجانٍ عظيمٍ اعترافاً بفضلِه ومكانتِه في الشّعر.

ومن تلكَ السَّنة سنة (١٩٢٧م) أصبحَ أحمد شوقي أميراً للشّعراء.

عمّار: وهل ذكرَ أحمد شوقي الإسلامَ والمسلمين في شِعْرِه؟

الجدّ: نعمْ، لقد تغنّى شوقي بالإسلام، وكان فخوراً بدينِه، غَيوراً على الإسلامِ والمسلمين، وأكثرَ من ذِكْرِ النبيّ محمّدٍ ﷺ، ومدحَ القرآنَ الكريم، وافتخرَ بالصَّحابة.

وله قصيدةٌ مكوّنةٌ من (١٣١) بيتاً عن مولدِ النبيّ ﷺ أوّلها:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ!

يقول: إنّه لما ولدَ الرَّسولُ ﷺ أشرقَ النورُ على الكون، وما فيه من ناسٍ وأشياء وكائنات، وذهبَ ظلامُ الجَهْل، كما تشرقُ الشَّمس، ويزولُ ظلامُ الليل، وصارت الحياةُ طيبة، وتبسّمَ الزمانُ فرحاً بمجيء هذا الرَّسولِ الكريم.

وكان أحمد شوقي يفتخرُ بحضارةِ الإسلام، والدَّليلُ على ذلك أنّه لما أجبرَهُ المستعمرون الإنجليز على مغادرةِ مصر، وأبعدوه إلى إسبانيا، وقفَ هنالكَ على حضارةِ العرب المسلمين في الأندلسِ التي استمرتْ ثمانمائة سنة، فرأى القصورَ والقِلاع، والمساجدَ والمدارس، والحدائقَ والبساتين.

وقفَ هنالك طويلاً، وبكى بُكاءً حارّاً، وتمنّى لو أنّ العَربَ حافظوا على هذه البلادِ الجميلة، ولم يخرجوا منها، فرثاها بقصيدةٍ مُحْزنة يقولُ فيها:

مَشَتِ الحادِثاتُ في غُرَفِ الحَمْـ راءِ مَشيَ النَعِيّ في دارِ عُرْسِ

وَإِذا الدّارُ ما بِها مِن أَنيسٍ وَإِذا القَومُ ما لَهُم مِن مُحِسّ!

ومعنى كلامِه: أنَّ المصائبَ قد دخلَتْ على حضارةِ الأندلس، على مُدُنِها: غرناطة، وقُرْطبة، وإشبيلة، فأصبحتْ خاليةً من أهلِها بعدَ أنْ كانتْ عامرةً بهم، كحالِ أهلِ عُرْسٍ يغنّون ويفرحون، ثمّ يأتيهم خبرٌ مُفجعٌ عن موتِ إنسانٍ عزيز، فيتحوّلُ الفرحُ إلى حُزن.

جمانة: قرأتُ يا جدّي، أنَّ أحمد شوقي قد اعتنى بالأطفال، فنظمَ لهم حكاياتٍ وأقاصيص، فهل تذكرُ لنا واحدةً منها؟

الجدّ: حقّاً، لقد أبدعَ شوقي في حكاياتِه وقِصَصِه للأطفال، وقد جعلَ الهدفَ منها هو الحثُّ على مكارمِ الأخلاق، وإمتاعُهم بالدُّعابة، ومن ذلك قصّةُ "حمارِ السَّفينة":

سَقَطَ الحِمارُ مِنَ السَفينَةِ في الدُّجى فَبَكى الرِّفاقُ لِفَقدِهِ وَتَرَحَّموا

حَتّى إِذا طَلَعَ النَهارُ أَتَتْ بِهِ نَحوَ السَفينَةِ مَوجَةٌ تَتَقَدَّمُ

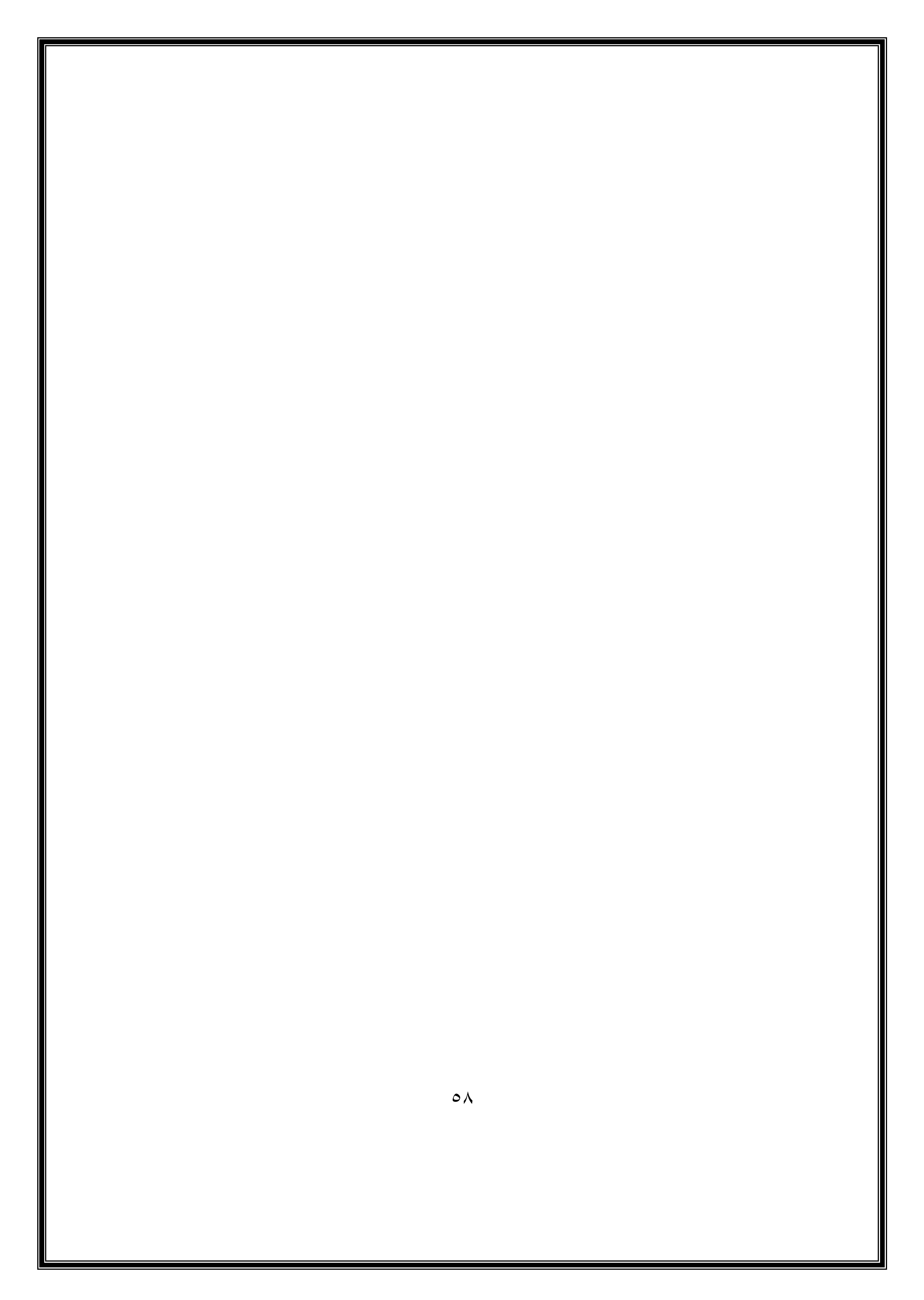
قالَتْ: خُذوهُ كَما أَتاني سالِماً لَمْ أَبتَلِعْهُ لِأَنَّهُ لا يُهْضَمُ!

حُكِيَ أنَّ حماراً كان راكباً في سفينة، فوقعَ منها ليلاً، وسقطَ في ماءِ البحر، فبكى عليه رفاقُهُ الحمير الذين كانوا في السَّفينة، وظنّوا أنّه قد غَرِقَ ومات.

ولما طلعَت الشَّمسُ إذا بموجةٍ كبيرة من أمواجِ البحر تدفعُ الحمارَ أمامَها، وتقودُهُ نحوَ السّفينة، وتتقدّمُ به شيئاً فشيئاً.

فلمّا وصلَت الموجةُ قالتْ للحمير: خُذُوا صاحبَكم، فقد أرجعْتُهُ إليكم سالماً مُعافى، ولم أبتلعْهُ، ولم آكُلْهُ؛ لأنّه لا يصلحُ للأكل؛ فهو حمار بن حمار، ثقيلُ الدَّم، عديمُ الفَهْم!

عمّار (وهو يَنْزل عن السّطح): رحمَ الله أحمد شوقي، فإنّه يستحقُّ لقبَ أميرِ الشُّعراء، وشكراً لك يا جدّي، على تعريفِنا بهؤلاءِ الأعلام: بعنترة، وحسّان، والجاحظ، والمتنبي، وشوقي.



روائع من نُصوص العَربيّة

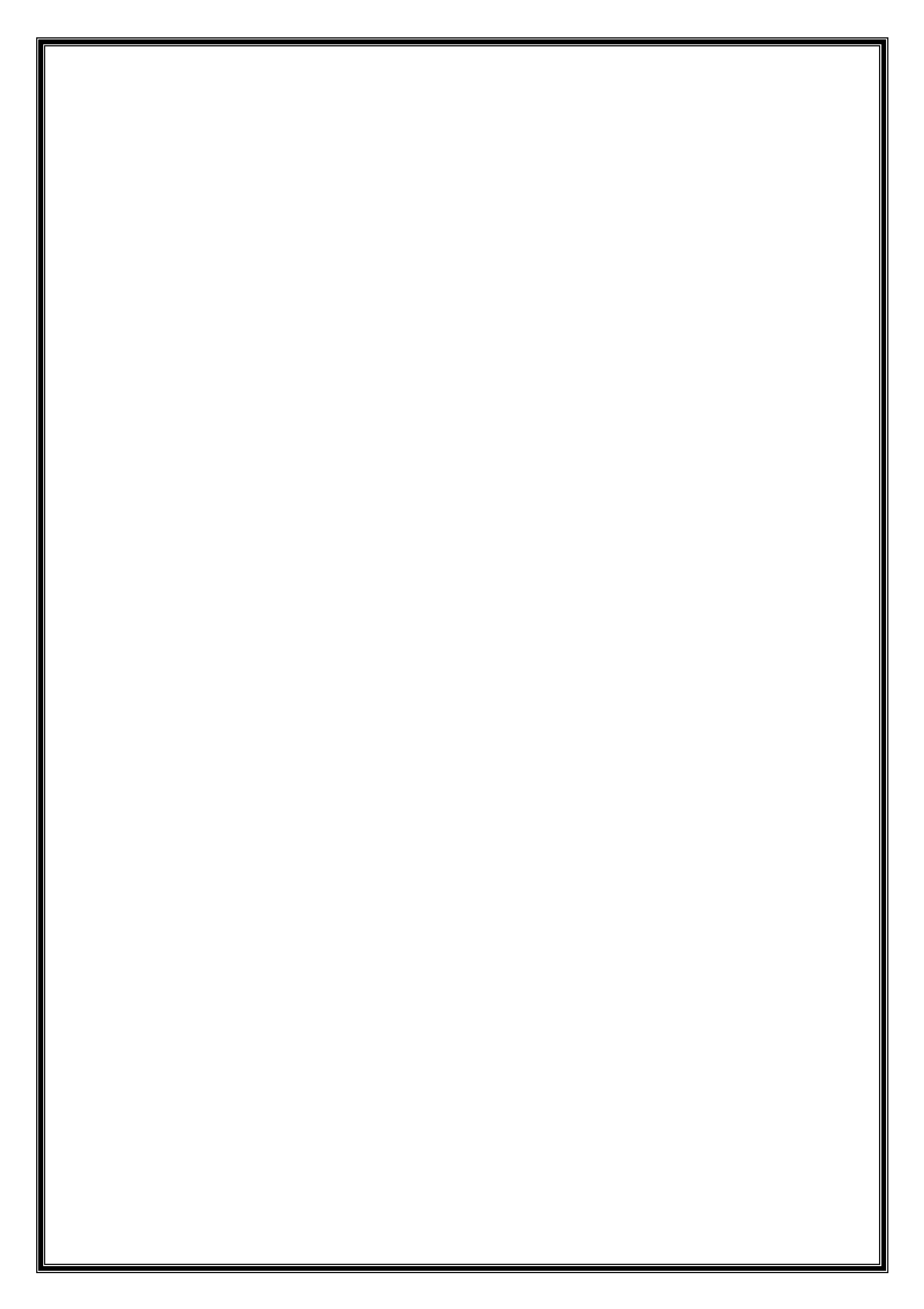
(١) قصّة الخَشَبة والبَحْر

(٢) حكاية الجَمَل الغَبيّ

(٣) الثّعلب الماكر والدّيك الذّكي

(٤) البُلْبُل وطَعْم الحرية

(٥) مُناظرة بين الجمَل والسّيارة



(١)
قصّة الخَشَبة والبَحْر

ذهبَ عمّار ذاتَ يومٍ مع جدِّه الخليل إلى المسجد، وبعد أنْ قُضِيَتِ الصّلاة قامَ الخليلُ يعلّمُ الناس، ويذكّرُهم باللهِ واليومِ الآخر، ويقصُّ عليهم من روائعِ الحديثِ النبويّ، فلمّا انتهى الدَّرسُ **قال عمّار** لجدِّه: لقد أمتعتَ الناسَ بعلمِك يا جدّي، ولكنني لم أفهمْ كثيراً ممّا قلتَ، وأرجو أنْ تُعيدَ عليّ قصّةَ الخَشَبةِ والبَحْر التي قصصتَها على الناس، ولكنْ بطريقةٍ سَهْلة؛ لكي أقصَّها على أختي جُمانة.

الجدّ: أفعلُ إنْ شاء الله تعالى.

حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أصحابَهُ عن رجلٍ في قديمِ الزّمان استدانَ مبلغَ ألف دينارٍ من صاحبٍ له، فماذا جرى بينهما؟ نسمعُ القصةَ جُزْءاً جُزْءاً ثمّ نشرحُها:

عَنْ رسولِ الله ﷺ: "أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ.

فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً.

قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيل.

قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً.

قَالَ: صَدَقْتَ.

فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى".

كان رجلان من الصّالحين يعيشانِ في الزّمانِ القديم زمنِ بني إسرائيل، فاحتاجَ أحدُهما إلى مبلغٍ من المال، فطلبَ من صاحبِهِ أن يُسْلِفَهُ، أي يُقرضه ألفَ دينار.

فقال صاحبُ المال: لا بدَّ أن تأتِيَني بناسٍ يشهدون أنني أقرضتُك المالَ حتى لا يضيعَ حقّي، ويذهبَ مالي.

فقال الرَّجلُ المحتاج: إنّي جعلتُ اللهَ هو الشَّاهدُ عليّ، فهو ربّي الذي خلقَني، وأمرني بردِّ حقوقِ الناسِ إليهم.

قال صاحبُ المال: إذن فأتني بإنسانٍ يَكْفُلُ مالي، ويدفعُ إليّ ألفَ دينارٍ إذا أنكرتَ حقّي، أو تأخّرتَ عن موعدِ السَّداد.

قال الرَّجلُ المحتاج: إنّي جعلتُ اللهَ هو الكَفيل، وهو الحافظُ لمالِكَ، ولن يَضيعَ حقُّكَ ما دامَ أنّ الكفيلَ هو الله، فهل ترضى به؟

قال صاحبُ المال: رضيتُ بالله، ولقد صدقَتَ أنَّ الله هو الشَّاهد، وهو الحافظ.

ثمّ أخرجَ صاحبُ المال مبلغَ ألف دينار فأعطاهُ إلى الرَّجلِ المحتاج إلى مدّةٍ مُعينة.

"فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَباً يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَباً، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا".

فَخَرَجَ الرَّجلُ الذي أخذَ المالَ إلى الْبَحْر، وركبَ السُّفنَ التي تحملُ البضائع، وصارَ يبيعُ ويشتري، ويعملُ في التّجارة، حتىَ قَضَى حَاجَتهُ، أي رَبِحَ، وحصّلَ مبلغاً من المالِ ينفقُ منه على نفسِه وأولادِه.

ولما حَلَّ موعدُ أداءِ الدَّيْن وقفَ على شاطئ البحرِ يبحثُ عن مَرْكبٍ يركبُ فيه؛ ليسافرَ إلى صاحبِ المال، ويدفعَ له مبلغَ ألف دينار، فلم يجدْ أيَّ مَرْكَب.

فَأَخَذَ الرَّجلُ خَشَبَة فَنَقَرَهَا، أَيْ حَفَرَهَا، وأدخلَ فيها ألفَ دينار، ووضعَ معها ورقةً جعلَها رسالةً إلى صاحبِ المال، وَكَتَبَ فيها: "مِنْ فُلَان إِلَى فُلَان، إنَّ مالَكَ في الخشَبة".

ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعهَا،أَيْ سَوَّى مَوْضِع النَّقْر في الْخَشَبَة وَأَصْلَحَهُ، وحَشَى شُقُوقها، وثبّتَها بِمَسَامِير؛ لكي لا يصلَ إليها الماء.

"ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَناً أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيداً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَباً، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِى الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَباً، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ".

ثمَّ أخذَ الرَّجلُ الخشَبة، ومشى نحوَ البحر، ورفعَ يديه إلى السَّماء، وقال: يا ربِّ، يا الله، إنّك تعلمُ أنّي تَسَلَّفْتُ فُلَانًا، أي اقترضْتُ منه ألفَ

دينار، وطلبَ مني كفيلاً، فقلتُ له: إنَّ الله هو الكفيلُ الحافظُ لمالِكَ، فرضيَ بك، وطلبَ مني شاهداً، فقلتُ له: إنَّ الله هو الشَّاهد، فرضيَ بك.

ولقد اجتهدتُ أنْ أجدَ مَرْكَباً؛ لأرسلَ إليه مالَهُ، فلم أستطعْ، فيا ربِّ، إنِّي أجعلُ هذه الخَشَبةَ وما فيها وديعةً وأمانةً عندَك، وأدعوك أن تُوْصِلَها إليه، فأنتَ الكَفيل.

ورمى الخشَبة في البحر، حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، أَيْ دَخَلَتْ فِي مياهِه، وأخذها الموْج.

ورجعَ الرَّجلُ، وهو لا يزالُ يبحثُ عن مَرْكَب؛ ليسافرَ إلى بلدِ صاحبِ المال.

"فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَباً قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَباً، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ".

أمّا صاحبُ المالِ فخرجَ ذاتَ يومٍ إلى البحرِ ينظرُ إلى المراكب، وينتظرُ صاحبَهُ أنْ يأتيَ بالمال، وبينما هو كذلك ينظرُ وينتظر رأى خشَبةً تعومُ فوقَ الماء، وتتقدّمُ نحوَهُ، فأخذها وحملهَا إِلَى أَهْله حَطَبًا فَقَالَ: أَوْقِدُوا هَذِهِ، فَلَمَّا نَشَرَهَا، أَيْ قَطَعَهَا بِالْمِنْشَارِ انْتَثَرَتْ الدَّنَانِيرُ مِنْهَا، فإذا هي ألفُ دينار، وخرجَتِ الرسالةُ المرفقةُ معها، فَقَرَأَهَا وَعَرَفَ أنَّ هذا المالَ من صاحبِه!

"ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِداً فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِداً". (رواه البخاري)

ثمّ بعدَ عدّةِ أيامٍ وجدَ الرَّجلُ مَرْكَباً، فركبَهُ حتى وصلَ إلى صاحبِ المال، ومعه ألفُ دينار، فقالَ يعتذرُ لصاحبِ المال: واللهِ يا أخي، لقد بذلتُ جُهْدي في البحثِ عن مَرْكَب من أجلِ أنْ آتيَكَ بمالِك في الموعدِ المحدّد فلم أجدْ أيَّ مَرْكَب إلا هذا المرْكَب الذي جئتُ فيه.

قال صاحبُ المال: هل أرسلتَ إليّ مالاً قبلَ أنْ تأتيَني؟

قال الرّجل: لقد أخبرتُك أنّي لم أجدْ أيّ مَرْكَب؛ لأرسلَ لك معه المال. وقد جئتُك بالمالِ الذي اقترضتُه منكَ، وهو ألفُ دينار.

قال صاحبُ المال: لقد وصلَني مالي الذي أرسلتَهُ إليَّ في الخشَبة، أوصلَهُ اللهُ تعالى، وأدّى عنكَ دَيْنَك؛ لأنّكَ توكّلْتَ عليه، واستعنتَ به، فليسَ لي عليك شيء، فخذْ المالَ الذي جئتَ به، باركَ اللهُ لك فيه!

ولما انتهَتِ القصّة **قال عمّار** لجدّه: الله الله، ما أحسنَها من قصّة!

الجدّ: إنّها ليستْ قصةً للتسلية، بل هي قصةٌ للفائدة، فماذا نتعلّمُ منها يا عمّار؟

عمّار: نتعلّم منها فوائدَ كثيرةً منها:

- أنَّ على الغنيّ أنْ يساعدَ الفقيرَ بما يحتاجُ إليه من مالٍ ومواعين وأدوات.
- وأنَّ علينا أنْ نعملَ في التجارةِ والزراعةِ والصناعة، كما فعلَ الرّجلُ الذي عَمِلَ في تجارةِ البحر حتى رَبِحَ وحصَّلَ مبلغاً من المال.
- وأنَّ علينا أنْ نتوكّلَ عَلَى اللَّهِ؛ لَأنَّ مَنْ تَوَكَّل على الله، واستعانَ به فإنَّ الله تعالى تَكَفَّلَ بِنَصْرِهِ وَعَوْنه، والحفاظِ على أهلِه ومالِه.

ولما وصلَ الجدُّ وعمّار إلى البيت **قال عمّار** لجمانة: لقد سمعتُ من جدّي قصّةً حُلوة سأقصُّها عليكِ، ولكن بشرطٍ واحد هو أنْ تُرتّبي طاولتي وتنظّفيها!

جمانة: لا أقبلُ شَرْطَك، فرتّبْ طاولتَك وحْدَك، وسأطلبُ من جدّي عندما تكونُ خارجَ البيتِ أنْ يقصَّ عليَّ قصّةً وَحْدِي!

(٢)

حكاية الجَمَل الغَبيّ

لما طلَعتْ شمسُ الصَّباح أرسلَ الجدُّ عمّاراً إلى السُّوق؛ ليأتيَهم بطعامِ الفَطُور، فانطلقَ عمّار، وهو يلاعبُ كُرةً بين رِجْليه.

واغْتَنَمتْ جمانةُ خروجَ عمّار فقالتْ لجدِّها: أرجوكَ يا جدّي، أنْ تقصَّ عليَّ حكايةً من حكاياتِك الحُلوة قبلَ أنْ يرجعَ عمّار!

الجدّ: ما أعجبَ أمرَكِ وأمرَ عمّار! تتنافسان وتتنازعان، وكلُّ واحدٍ منكما يريدُ أنْ تكونَ القصصُ له، وقد ذكّرْتُماني بكَلِيْلة ودِمْنَة!

جمانة: وما معنى كَلِيْلة ودِمْنة؟

الجدّ: كَلِيْلة ودِمنة قصّةٌ قديمةٌ من قصصِ الهِنْد، قصَّها رجلٌ حكيمٌ يسمّى "بَيْدَبا" على مَلِكٍ ظالم يسمّى "دَبْشليم"، وجعلَ الرَّجلُ الحكيمُ هذه القصّة على ألسنةِ الحيوانات والطُّيور؛ لينصحَ الملكَ بأحسنِ أسلوب، وسمّى القصّةَ على اسمِ ثَعْلبين ماكرين، كانا يتنافسان في كلّ شيء، هما كَلِيْلة ودِمْنة.

وقد نَقَلَ هذه القصّةَ إلى اللغةِ العربيّة كاتبٌ كبير يقالُ له "ابنُ المقفّع"، وهو صديقي.

جمانة: تخيّلْ يا جدّي أنّكَ الحكيمُ "بَيْدَبا"، وأنا الملِك "دَبْشليم"، فاقصصْ عليّ واحدةً من قصصِ كَلِيْلة ودِمْنَة.

الجدّ: سمعاً وطاعة، فاسمعي يا جمانة، ولا تسألي عن شيءٍ حتّى أتمّ القصّة.

"**زعموا أنَّ أَسَداً كانَ في أَجَمَةٍ** (أي كان في غابةٍ) **مجاورةٍ لطريقٍ من طُرقِ الناس، وكان له أصحابٌ ثلاثة: ذئب، وغُراب، وابن آوى.** (ابن آوى: حيوان أصغر من الذئب)

وذاتَ يومٍ مرَّ رُعاةٌ بذلكَ الطَّريق، ومعَهُم جِمَال، فتخلَّفَ منها جَمَل (أي تأخّرَ وضاعَ)، **فدخلَ تلكَ الأَجَمَة، حتى انتهى إلى الأسد** (أي دخلَ الغابة حتى وصلَ إلى عَرينِ الأسد).

فقالَ له الأسد: مِنْ أينَ أقبلتَ؟ (أي مِنْ أينَ جئتَ)

قال الجَمَل: من موضعِ كذا. (ذكرَ له اسمَ المكان الذي جاءَ منه).

قال الأسد: فما حاجتُكَ؟ (أي ماذا تريدُ مني؟)

قال الجَمل: ما يأمرني به المَلِك. (أي أنا مطيعٌ لأمْرِكَ أيها الأسد، يا مَلِكَ الغابة).

قال الأسد: تُقيمُ عندَنا في السَّعَةِ والأمْنِ والخِصْب. (أي تظلُّ معنا في الغابة، وتأكلُ وتشربُ وتتمتّع، وأنتَ آمنٌ مُطمئن، لا تخافُ أحداً)

فأقامَ الأسدُ والجَمَلُ زَمَناً طويلاً.

ثمّ إنَّ الأسدَ مضى في بعضِ الأيّام لطَلَبِ الصَّيْد، فلقيَ فِيْلاً عظيماً، فقاتَلَهُ قِتالاً شديداً، وأفْلَتَ منه مُثْقَلاً مُثْخَناً بالجِراح، يسيلُ

منه الدَّم، (أي هربَ الفيلُ من كثرة ما أصابَهُ من جُروح ودِماء) **وقد خدشَهُ الفيلُ بأنيابِه.** (أي ضربَ الفيلُ بأنيابِه القوية الأسدَ فجرحَهُ)

فلمّا وصلَ الأسدُ إلى مكانِه في الغابة وقعَ لا يستطيعُ حَراكاً، ولا يَقْدِرُ على طَلَبِ الصَّيْد، فلبثَ الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى أياماً لا يجدون طعاماً؛ لأنّهم كانوا يأكلونَ من فضَلاتِ الأسدِ وطعامِه، فأصابَهم جوعٌ شديد وهُزال (أي ضَعْف).

وعرفَ الأسدُ ذلكَ منهم، وقال لهم: انتشروا لعلّكم تُصيبون صَيْداً تأتوني به، فيصيبني ويُصيبكم منه رِزْق. (أي اذهبوا لعلكم تجدون طعاماً تأكلون منه، وآكلُ معَكُم منه).

فخرجَ الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى من عندِ الأسد، فتنحَّوا ناحية، وتشاوَرُوا فيما بينَهم، وقالوا: ما لنا ولهذا الجَمَلِ الآكلِ العُشب الذي ليس شأنُهُ من شأنِنا، ولا رأيُهُ من رأيِنا، ألا نُزيّن للأسدِ فيأكُلَهُ، ويُطعمَنا من لحمِه؟ (أي قالوا: نحن نختلفُ عن الجمَل، فهو يأكلُ العُشب، ونحن نأكلُ اللَّحم، وهو ليس صاحباً لنا، فهل نشجّع الأسد، ونُغريه بأكلِ الجَمَل؟).

قال ابنُ آوى: هذا ممّا لا نستطيعُ ذِكْرَهُ للأسد؛ لأنّه قدَ أَمَّنَ الجَمَل، وجعلَ له مِنْ ذِمَّتِه عَهْداً. (أي لا نستطيعُ أنْ نُكلّمَ الأسدَ في

أمرِ الجَمَل؛ لأنّه أعطى الجَمَل العهد بأنْ يَرْتَعَ في الغابة آمناً لا يخافُ أحداً).

قال الغراب: أنا أَكْفِيْكُم أمْرَ الأسد. (أي أنا قادرٌ على إقناعِ الأسد)

ثُمَّ انطلقَ فدخلَ على الأسد، فقالَ لَهُ الأسد: هل أَصَبْتَ شيئاً؟ (أي هل حَصَّلتَ طعاماً)

قال الغراب: إنّما يُصيبُ مَنْ يسعى ويُبْصِر، وأمَّا نحنُ فلا سَعْيَ لنا ولا بَصَر؛ لِمَا بنا مِنَ الجوع. (أي لا يُحصِّلُ الطعامَ إلا القويُّ القادرُ على الحركةِ ورؤيةِ الصَّيْد، ونحن لا نستطيعُ ذلك بسببِ الجوعِ الذي أصابَنا)

ولكنْ قد وُفِّقْنا لرأيٍ واجتمعنا عليه، إنْ وافَقَنا المَلِكُ فنحنُ له مُجيبون. (أي وفَّقَنا الله، فاتّفقنا كُلُّنا على رأيٍ واحد، وإذا أردتَ أيُّها الملِك أنْ تعملَ بهذا الرأي فنحن مُطيعون لك)

قال الأسد: وما ذاك؟ (أي ما هذا الرَّأي الذي اتّفقتُم عليه؟)

قال الغراب: هذا الجَمَلُ آكلُ العُشب المتمرّغُ بينَنا من غيرِ مَنْفَعةٍ لنا منه، ولا رَدِّ عائِدة، ولا عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلحة. (أي اتّفقنا على ذَبْحِ الجمَل؛ ليكونَ طعاماً لنا، فهو يأكلُ العُشب، ويُعَفِّرُ نفسَهُ بالتراب، ولا نستفيدُ منه، ولا ينفعُنا، ولا يردُّ ما صنَعْنا له من خير، ولا يعملُ عملاً فيه فائدة).

فلما سَمِعَ الأسدُ ذلك غَضِبَ، وقال: ما أخطأَ رأيَكَ! وما أبعدَك من الوفاءِ والرَّحْمَة! (أي إنَّ رأيَكَ يا غُراب، خاطئ، وقلبَك قاسٍ لا يَرْحَم، وأنت بهذا الرأي بعيدٌ عن الوفاءِ بالعهد)

وقد علمتَ أنِّي قد آمنتُ الجمَل، وجعلتُ له من ذِمَّتي، ولستُ بغادرٍ به. (أي أنتَ تعرفُ أنِّي قد جعلتُ الجمَل آمناً في غابتي، وأعطيتُهُ العهدَ من نفسي أنْ أحفظَهُ، فلستُ بالذي يخونُ عهدَهُ، ويَغْدِرُ بمَنْ يُعطيه الأمان)

قال الغراب: إنِّي لأعرفُ ما يقولُ المَلِك، ولكنَّ النفسَ الواحدةَ يُفْتدى بها أهلُ البيت، وأهلُ البيت تُفْتَدى بهم القَبيلة، والقَبيلة يُفْتَدى بها أهلُ المِصْر، وأهلُ المِصْر فِداءُ المَلِك. (أي أنا أعرفُ أنّك عاهدتَ الجمَل، ولكنْ مِنْ أجلِ أنْ تَسْلَمَ العائلةُ كلُّها لا بدَّ من التضحيةِ بواحدٍ منها، ومن أجلِ أنْ تسلمَ العشيرةُ لا بدَّ من التضحيةِ بعائلة، ومنْ أجلِ أنْ يسلمَ البلدُ لا بدَّ من التضحيةِ بعشيرة، والبلدُ كلُّهُ مستعدٌّ للتضحيةِ من أجل المِلك!)

وقد نَزَلتْ بالمَلِك الحاجة، (أي إنَّك أيّها المِلك، تُعاني من الجوع، وأنتَ محتاجٌ إلى واحدٍ يُضحّي بنفسِه؛ ليكونَ طعاماً لك)

وأنا أجعلُ له من ذمَّتِه مَخْرجاً على ألَّا يتكلَّفَ المَلِكُ ذلك، ولا يَلِيَهِ بنفسِه، ولا يأمرَ بهِ أحداً، ولكنّا نحتالُ بحيلةٍ لنا وله فيها صَلاحٌ

وظَفَر. (أي أنا سأجدُ طريقةً تُريحُ الملِك، وتحافظُ على عهدِهِ للجمَل، وتأتيه بالطعامِ دونَ أنْ يُتْعِبَ نفسَهُ، أو يأمرَ أحداً بذلك، وسنُدبّرُ الأمر، ونخترعُ الحِيَلَ التي تنفعُنا وتنفعُ الملِك، وتُصلحُ حالَنا وحالَهُ، وتجعلُنا غالبين مُنتصرين!)

فسكَتَ الأسدُ عن جوابِ الغُراب عن هذا الخِطاب. (أي ظلَّ الأسدُ ساكتاً، ولم يتكلّمْ، ولم يعترضْ على كلامِ الغراب).

فلما عرفَ الغُرابُ إِقْرَارَ الأسد (أي موافقة الأسد)، **أتى أصحابَهُ، فقال لهم: قد كلَّمْتُ الأسدَ في أكلِه الجمَل، على أنْ نجتمعَ نحنُ والجملُ عندَ الأسد، فنذكرَ ما أصابَهُ، ونتوجَّعَ لَهُ اهتماماً منَّا بأمرِهِ، وحِرْصاً على صَلاحِه، ويَعْرِض كلُّ واحدٍ منّا نفسَهُ عليه تجمُّلاً ليأكلَهُ**، (أي يُحبّب نفسَه إلى الأسد ليأكلَه)، **فيردُّ الآخرانِ عليه، ويُسَفِّهَان رأيَه، ويُبيّنانِ الضَّررَ في أكْلِه**. (أي يقولُ له صاحباهُ الآخران عندما يَعْرِضُ رأيه: إنَّ رأيَك خاطئ، وإذا أكَلَك الأسدَ، فإنَّه سيُصابُ بالمرض والألم، فلحمُك ليس طيّباً للأكْل!)

فإذا فَعَلْنا ذلك سَلِمْنا كُلُّنا، ورَضيَ الأسدُ عنّا. ففعلوا ذلك، وتقدّمُوا إلى الأسد. (أي ذهبوا إلى الجمَل فكلّموه، وأخفَوا عنه الخُطّة، فوافقَ على أنْ يذهبَ معهم إلى الأسدِ، ويقول كلُّ واحدٍ منهم: أنا أُضحّي بنفسي)

فقال الغُراب: قد احْتَجْتَ أيها المَلِك، إلى ما يُقوّيك، ونحنُ أحقُّ أنْ نَهَبَ أنفسَنا لكَ، فإنّا بِكَ نعيش، فإذا هلكتَ فليسَ لأحدٍ منّا بقاءٌ بعدَك، فليأكُلْني المَلِك، فقد طِبْتُ بذلك نَفْسَاً. (أي أنتَ محتاجٌ أيها المِلك، إلى الطَّعام، ونحن نقدّمُ لك أنفسَنا، فلا حياةَ لنا إلا بك، فإذا مِتَّ جوعاً فسوف نموتُ معك، وأنا أقدّمُ نفسي لتأكُلَني، وأنا راضٍ بذلك!)

فأجابه الذئبُ وابنُ آوى: أن اسْكُتْ، فلا خيرَ للمَلِك في أكْلِك، وليس فيك شِبَع. (أي لحمُك لا ينفع، ولا تُشبعُ الأسدَ إذا أكلَك).

قال ابنُ آوى: لكنْ أنا أُشْبِعُ المَلِك، فليأكُلْني، فقد رضيتُ بذلك، وطِبْتُ عنه نَفَساً، فردَّ عليه الذئبُ والغُراب بقولهِما: إنك لَمُنْتِنٌ قَذِر. (أي أنتَ قَذِرُ اللّحم، كَريهُ الرَّائحة يا بنَ آوى).

قال الذئبُ: أمَّا أنا فلستُ كذلك، فليأكُلْني المَلِك، فقد سمحتُ بذلك، وطِبْتُ عنه نَفْساً، فاعترضَهُ الغرابُ وابنُ آوى وقالا: قد قالتِ الأطباءُ: مَنْ أرادَ قتلَ نفسِه فليأكلْ لحمَ ذِئْب. فظنَّ الجمَلُ أنَّه إذا عرَضَ نفسَهُ على الأكْلِ التمَسُوا له عُذْرا، (أي وجدوا له عُذْراً)، **كما التمسَ بعضُهم لبعضٍ الأعذار، فيَسْلَمُ ويرضى الأسدُ عنه بذلك، وينجو من المهالِك.** (أي ينجو من الموت).

فقال الجمَلُ: لكنْ أنا فِيَّ للمَلِك شِبَعٌ وَرِيّ، ولَحْمِي طيّبٌ هَنِيّ، وبطني نَظيف، (أي أنا أُشبعُ المِلِكَ بلحمي، وأرويه بالماءِ الذي في جسمي، ولحمي لذيذ، وبطني نظيف من الأمراضِ والرَّوائحِ الكريهة)، **فليأكُلْني المَلِك، ويُطْعِمْ أصحابَهُ وخَدَمَهُ، فقد رضيتُ بذلك، وطابتْ نفسي عنه، وسمحتُ بهِ.**

فقال الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى: لقد صَدَقَ الجمَل وكَرُم، وقالَ ما عرَف. (أي لقد صدَقَ الجمَلُ في كلامِه، وهو كريم، ويعرفُ عن نفسِه ولحمِه الطيّب مالا نعرف، فهنيئاً لك لحمه أيّها الأسد!)

ثمَّ إنَّهم وَثَبُوا عليه فمزّقوه! (أي قَفزُوا على الجَمَل، ونهشُوا لحمَهُ، وأسالوا دمَهُ، وذبحوه، وقدّموهُ طعاماً للأسد، وقعدوا يأكلون ويضحكون بعدما خدعُوا الجمَل بتلك الحيلة الخبيثة!).

ولما فرغَ الجدُّ من القصّة قالتْ جمانة: يا لها من قصّةٍ مُمتعة!

الجدّ: حسناً هي ممتعة، فماذا نتعلّمُ منها؟

جمانة: نتعلّمُ منها يا جدّي، أنْ نحافظَ على الوعدِ والعهد، ولا نكونَ كالأسدِ الذي أقسمَ للجمَلِ بأنّه سيحميه ويحافظُ عليه، ثمّ أخلفَ وعدَهُ، ووافقَ على الغَدْرِ به وأكْلِه!

ونتعلّمُ منها أنْ لا نصاحبَ الخبثاءَ الماكرين، ولا نتخذَهُم لنا جُلساء، فإنَّ أصحابَ الأسدِ (وهم الذئب والغراب وابن آوى) قد جعلوهُ يتركُ العَدَل في الغابة، ويغيّرُ ما في نفسِه من الخير والرَّحمة.

ونتعلّم منها أنْ نكونَ حَذِرين مُستيقظين حتى لا يخدعَنا أحد، ولا يحتالَ علينا مُحتال، ولا نكونَ كالجمَلِ الغَبيّ الذي خدعَهُ الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى!

ثمّ نظرتْ جمانةُ إلى الباب فإذا عمّارٌ قد رجعَ من السّوق فقالتْ له: إنَّ جدّي قد قصَّ عليَّ قصّةً من كتاب كَلِيْلة ودِمْنة، فإذا أحببتَ أنْ أقصَّها عليك فاغسلْ جَواربي!

عمّار: اغسلي جواربَكِ بنفسِكِ، فأنا لا أريدُ قصّتَكِ، وعندَ جدّي قصصٌ كثيرةٌ أحلى من "كَليلة ودِمْنة" ألفَ مرّة!

وأشارَ عمّار بعينيه إلى جدّه: أليس كذلك يا جدّي؟

الجدّ: بلى يا عمّار، موعدُنا الصُّبح، أليس الصُّبحُ بقريب؟!

(٣)

الثّعلب الماكر والدّيك الذّكي

بعدَ أنْ صلّى الجدُّ ركعتي الضُّحى أقبلَ عمّار فجلسَ على سجّادةِ الصَّلاة قُبالةَ جدِّه، وأخذَ يُسبّحُ بصوتٍ عالٍ كما يفعلُ جدُّه: سبحانَ الله وبحمدِه، سبحانَ الله العظيم..

وأمّا جمانةُ فشُغِلَتْ بنشرِ الغَسيل فوقَ سطحِ الدَّار، وهي تستعيدُ القصّةَ التي سَمِعَتْها من جدِّها عن كَلِيْلة ودِمْنة؛ لتقصَّها على بناتِ الجيران!

ولما هَمَّ الجدُّ بالقيامِ قالَ **عمّار**: لا أَدَعُك تذهبُ حتى تُنجزَ وعدَك لي، وتُطيّبَ مسامعي بقصّةٍ عن عالَمِ الحيَوان كالتي قصصتَها على أختي جمانة أمسِ، وأحبّ أنْ تكونَ عن الثَّعْلبِ والدِّيك!

الجدّ: نعم ستكونُ القصّةُ عن الثَّعْلب والدِّيك، ولكن استمعْ جيّداً، فالقصّةً حكاها الشّاعر "أحمد شوقي"، ونظمَها في قصيدةٍ حُلوة.

يُحْكى أنَّ ثعلباً كان يعيشُ في غابة، فسمعَ أنَّ ديكاً سمينَ الجسم، قُرْمُزيَّ العُرْف، جميلَ المنظر، قد اتّخذَ له بيتاً فوقَ شجرةٍ من أشجارِ الغابة، وصارَ يصيح، ويترنّمُ بصوتِه العَذْب، ونشيدِه الرّائع، وأحسَّ الثعلبُ بالجوع، ففكّرَ بحيلة؛ لكي يخدعَ الدِّيكَ ويأكلَهُ، فقد مرّتْ عليه أيّامٌ لم يَطْعَمْ فيها لحمَ الدّجاج، وهو اللحمُ المفضّلُ عندَه!

فماذا فعلَ الثعلب؟

بَـــــرَزَ الثَعلَــــــبُ يَومـــــاً في ــــ شِعَـــارِ الواعِظـــــينا

فَمَشـى في اـلأَرضِ يَهْـدِي وَيَسُـــــــبُّ الماكِريـــــــنا

خرجَ الثعلبُ من بيتِه في أحدِ الأيام، وقد لبسَ ثياباً رقيقةً تدلُّ على الخشوعِ والتديُّنِ كثيابِ الوُعَّاظ وعلماءِ الدِّيْن الذين يُرْشدون الناسَ إلى الخير، ولبسَ الطَّرْبُوش، وراحَ يتمايلُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال، ويتظاهرُ بالوَرَع والتقوى، وبيدِه مِسْبَحةٌ طويلة!

ومشى في أرضِ الغابةِ الواسعة بهدوءٍ ووَقَار، يسلِّمُ على مَّنْ يلقاه، ويدعوه إلى الأخلاقِ الكريمة، ويهديه إلى العملِ الصّالح، وينصحُهُ بتركِ الظلمِ والاعتداء، ويسبُّ كلَّ مُخادع، ويشتمُ كلَّ ماكرٍ يحتالُ على الناس، ويلعنُ منْ يُلْحقُ الضّررَ بأيِّ أحد. ثمَّ يعلنُ أنّه قد تخلّى عن المِكْر، وتابَ إلى اللهِ توبةً خالصة!

وَيَقـــــولُ: الحَمــــــدُ لِلـــــهِ إِلَــــــــهِ العالَمِــــــــينا

يـــــا عِبـــــادَ اــــلله، توبـــــوا فَهــــوَ كَهْـــفُ التائِبينـــــا!

ويقول: الحمدُ لله الذي هَداني، وجعلَني أتركُ المِكْر، والحمدُ لله الذي أوجدَ لنا هذه الغابة؛ لنعيشَ فيها، وننعمَ بأطايبِ طعامِها وشرابِها وظلالِها، إنّه إلهُ العالمين، فهو ربُّ الناس، وربُّ الحيوان، وربُّ النَّبات.

وينادي الثعلبُ أهلَ الغابة: يا أهلَ الغابة، هَلُمُّوا إليَّ، فعندي خيرٌ كثير لكم، وتعالَوا إلى ما يصلحُ حياتَكم ودُنْياكم.

ثمَّ يجتمعُ أهلُ الغابةِ كُلُّهم: الذِّئاب والأُسود، والنُّمور والفُهود، والضِّباع والقُرود، فيقفُ الثعلبُ على تَلَّةٍ ويقول: يا عبادَ الله، توبوا إلى الله من الذُّنوب والخطايا، وانْدَمُوا على ما فعلتُم من المعاصي والآثام، فاللهُ يتقبّلُ توبةَ التائب، ويحفظُه من كُلِّ سوء، ويكونُ له كالكهفِ الذي يحمي مَنْ يلتجئُ إليه.

وَازهَدُوا في الطَّيْرِ إنَّ العَيْشَ عَيشُ الزَّاهِدينا

وأرجو منكم يا عبادَ الله، أنْ تَزْهَدُوا في الطيور، أي أنْ تتركوا صيدَها ولحومَها، وتبتعدوا عَنْ أعشاشِها؛ فإنَّ أحسنَ العيشِ وأسعدَهُ وأهنأَهُ هو عيشُ الذين يُقلِّلون من الطَّعام، هو عيشُ الذين يَزْهدون في الطيور، وبخاصةٍ الدَّجاج والدِّيكة!

وَاطلُبُوا الدِّيْكَ يُؤَذِّن لِصَلاةِ الصُّبحِ فِيْنا

فَأَتَى الدِّيْكَ رَسولٌ مِن إِمامِ الناسِكينا

وقد وجبَ علينا يا عبادَ الله، أنْ نقيمَ الصَّلواتِ الخمس في هذه الغابةِ المباركة، وأنا سأكونُ إماماً لكم، ولكنّنا نحتاجُ إلى مؤذّنٍ يكونُ صوتُه عَذْباً رَخيماً، يهزُّ القلوبَ والأسماع، وما أرى أحداً يحقِّقُ هذا الشّرطَ إلا الدِّيك، فأرسلوا إليه؛ ليكونَ مُؤذّناً للغابة، ويبدأَ عملَهُ غداً، فيؤذّن لصلاةِ الصُّبح فينا!

ثمَّ أرسلَ الثعلبُ واحداً من أصحابِهِ إلى الدّيك، ووصلَ الرَّسولُ إلى بيتِ الدّيك بعدَ أنْ سألَ عنه، فسلّمَ عليه، وقال له: إنّني مُرْسلٌ من فضيلةِ إمامِنا الثَّعْلب إمامِ الزّهاد.

عَــــرَضَ الأَمــــرَ عَلَيــــهِ وَهـــوَ يَرجـــو أَنْ يَلينـــا
فَأَجـــابَ الديـــكُ: عُـــذراً يـــا أَضَـــلَّ المُهتَديـــنا

قال الدّيك: وبمَ أرسلَك الثّعلب؟

قال الرَّسول: أرسلني بأمرٍ لكَ فيه خيرٌ وصَلاح.

وعرضَ الرَّسولُ على الدِّيك أنْ يكونَ مُؤذّنَ الغابة، ويؤذّنَ من الغَد، فينْزل من فوقِ الشَّجرة، ويشهد صلاةَ الصُّبحِ مع المصلّين.

ثمَّ أخذَ الرَّسولُ يتودّدُ إلى الدِّيك، ويخاطبُه بأحسنِ طريقة، لعلّه يَلين، ويَقْبل هذا العَرْض الجميل!

فقال الدّيك: أنا أعتذرُ عن قَبُولِ هذا العَرْض، وأرفضُ أنْ أكونَ مُؤذّناً عندَ ذلك الثعلبِ الماكر الذي يتظاهرُ بالدِّين والخُلُق، ويتشبّهُ بالصَّالحين، وهو مُنحرفٌ كذّاب!

بَلِّـــغِ الثَّعلـــبَ عَنّـــي عَـــن جُـــدودي الصَّـــالِحينا
عَـــن ذَوي التِّيْجـــانِ مِمَّـــنْ دَخَـــلَ البَطـــنَ اللَّعِينـــا

ثمَّ رفعَ الدّيكُ صوتَهُ، وثارَ الدَّمُ في وجهِه، وانتفخَتْ عروقُه، وقال: اذهبْ أيّها الرَّسول، وبلِّغ الثعلبَ رسالةً منّي ومن أجدادي الدّيكة الصَّادقين في أقوالِهم وأعمالِهم.

بلِّغ الثعلبَ عَنْ كُلِّ ديكٍ من أجدادي الذين كان عُرْفُ أحدِهم فوقَ رأسِه كأنّه التَّاجُ الذي يَلْبَسُه الملِك، خَبِّرْهُ عن أجدادي الذين كانوا يحملون التِّيْجانَ الحمراءَ على رؤوسِهم، وقلْ له: لقد أكلتَ كثيراً منهم، فدخلوا في بطنِك الملعون، فكانوا طعاماً لك!

أَنَّهُـــم قالـــوا وَخَـــيرُ الــــ قَـــولِ قَـــولُ العَارِفينـــا

مُخطِـــئٌ مَـــنْ ظَـــنَّ يَومـــاً أَنَّ لِلثَعْلَـــــبِ دِيْـــــنا!

وغضبَ الدّيكُ غضباً شديداً، وقال للرسول: قلْ للثعلب الكذّاب أنَّ أجدادي كانوا أعرفَ به وبمكرِه وخداعِه، وأنَّهم قالوا:

- لقد أخطأ خطأً كبيراً كلُّ مَنْ ظنَّ أنَّ الثعلبَ له دِيْن؛ لأنَّ الثعلبَ لا يتركُ أكْلَ الدَّجاج والدّيكة ما دامَ حيّاً!

وذهبَ الرّسولُ إلى الثعلبِ، وأخبرَهُ بكلّ ما قالَ الدّيك، فتحسّرَ الثعلبُ على فواتِ الفُرْصة، وفشَلِ الخُطّة، وقال في نفسِه: سوف أفكّر بحيلةٍ أخرى، فأنا أبو المكْر والحِيَل!

ولما انتهى الجدُّ من القصّة صفّقَ عمّارٌ بيديه، وقال: رائع، رائع! لقد علّمتَني اليومَ قصّةً لو سمعتْها جمانةُ لطارتْ من الفرَح.

الجدّ: المهمّ أنْ نعرفَ ماذا نتعلّمُ من هذه القصة.

عمّار: نتعلّمُ منها يا جدّي، أنْ لا نُصَدِّقَ الإنسانَ الكذّاب الذي يتظاهرُ بأنّه مُتديّن وخَلُوق، ولا ننخدعَ بأقوالِه أو ثيابِه.

وأنَّ الإنسانَ الكذّابَ المخادعَ سوف يُعْرَف ويُفْضَح، ولو بعدَ حين، كما عُرِفَ كَذِبُ الثعلب، وكما فُضِحَتْ خُطّتُه الماكرة.

وأنَّ على كلّ واحدٍ منّا أنْ يكونَ فَطِناً ذكيّاً كالدّيكِ الذي عرفَ ماذا يريدُ منه الثّعلب، فرفض أنْ يذهبَ إليه، وأبى أنْ يصاحبَهُ، وختمَ كلامَهُ بحكمةٍ نافعة:

مُخْطِـــئٌ مَـــنْ ظَـــنَّ يَومـــاً أَنَّ لِلثَعلَـــــبِ دِيْـــــنا!

أقبلتْ جمانة بعدَ أنْ نشرَتِ الغَسيلَ فقال لها عمّار: لقد فاتَتْكِ اليومَ قصيدةٌ بارعة، وقصّةٌ رائعة، وإذا أردتِ أنْ أقرأَ عليكِ القصيدة، وأحكيَ لكِ القصّة فقولي بصوتٍ مُتدرّج عشرَ مرّات: يا عمّار، يا بطَل!

جمانة: عُذْراً، لا أريدُ أنْ أبحّ صوتي من أجلِ قصيدة، فذاكرةُ جدّي مملوءةٌ بروائعِ القصائد، وغداً سترى يا عمّار، يا بَصَل!

عمّار: أنا بطَل، ولستُ من البَصَل، يا آكِلَةَ الثّومِ والفِجْل!

الجدّ: اصْمُتا يا "توم وجيري"، اصْمُتا!

أطبقَ عمّار شَفتيهِ وسكَت، وخرجَتْ جمانةُ إلى السَّطحِ، ونهضَ الجدُّ يقرأُ ويكتب!

(٤)

البُلْبُل وطَعْم الحُريّة

فَتَحَتْ جمانةُ عينيها على زَقْزقةِ العصافير، فنظرَتْ فإذا عمّارٌ لا يزالُ مُستغرقاً في النوم، فنهضَتْ من فراشِها، وبحَثَتْ عن جدِّها، فوجدتُه تحتَ الأشجار يُلقي بالحَبِّ للطيور، فأعجبَها منظرُ الطيور التي تَنْزل من أعالي التِّلال، فتلتقطُ الحَبَّ، ثمّ تطيرُ، وهي تغرّدُ وتُغني!

قالت جمانة: سبحانَ الله الذي جعلَ للطيورِ أجنحةً تطيرُ بها، وتحلّقُ في السَّماء، وترى ما تحتَها على الأرض، وتنتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ بسرعة، فلماذا لا نطيرُ نحن يا جدّي؟!

الجدّ: ليستْ لنا أجنحةٌ فنطير بها، وجاذبيةُ الأرضِ تشدُّنا إليها، فكيف نطيرُ بأجسامِنا هذه؟ ولكنَّ الإنسانَ اخترعَ آلاتٍ ومركبات، وركّبَ لها أجنحةً ومراوح، وزوَّدَها بالوَقُود، فطارتْ في الفضاء، فرَكِبَها الناس، وتنقّلوا بها من قارةٍ إلى قارة!

جمانة: حدّثني يا جدّي عن حكايةٍ من حكايات الطيور قبلَ أنْ يستيقظَ عمّار من النوم، على أنْ تكونَ الحكايةُ من خلال قصيدةٍ حُلوة.

الجدّ: يُحْكى أنّه كان بجوارِ قريةٍ بُستانٌ لرجلٍ غنيّ، وكان في البستانِ أشجارٌ مُثمرة، وزهورٌ يانعة، ونبعُ ماء، وكان الرَّجلُ الغنيُّ يعتني بهذا

البستان، ويُحْضِرُ له العُمّال، ويَقْضي فيه وقتَ العُطلة حتى صارَ أحسنَ بستانٍ في القرية.

وذاتَ يوم التقى في هذا البستانِ الجميلِ بُلْبُلان، فتحاورا، فماذا دارَ بينَهما، وماذا قالَ كلٌّ منهما للآخر؟

سأقرأُ أبياتَ القصيدةِ أوّلاً، ثمَّ أشرحُها بيتاً بيتاً، فاستمعي يا بُنيّة:

تَلاقَى بروضٍ بُلْبُلانِ فواحِدٌ
لـه قَفَصٌ قد نِيْطَ بالفنَنِ الأعلى

لـه حولَـهُ مـا يَشْتهي مـن فواكـهٍ
وحَبٍّ وعيشٍ يجمعُ الرِّيَّ والأكْلا

وثانٍ طَليقٌ باحِثٌ عن غِذائِهِ
إذا لم يجِدْهُ يَغْتَذي الشَّمْسَ والظِّلا

فنادَهُ ذو العيشِ الرَّغيدِ ألا ابْتَدِرْ
إلى قَفَصٍ أُشْرِكْكَ في عِيْشتي المُثْلَى

إلامَ طَوافٌ مُزْمِنٌ وتَشَرُّدٌ
ولمَّا تَذُقْ أَمْناً نهاراً ولا لَيْلا

وأرقدُ مِلْءَ العَيْنِ لم أخشَ صائِداً
ولا أخْتَشي نَسْراً ولا أَتَّقي نَصْلا

أُقَضِّــي نهــاري بــينَ رَقْــصٍ إِلى غِنَــا

كــأنّ الغِنــا والــرَّقصَ لي أصــبحا شُــغْلا

هَلُــمَّ لِحُلْــوِ العــيشِ قــالَ رفيقُــهُ:

صَـــدَقْتَ، ولكـــنْ: طَعْـــمُ حُريّـــتي أحلـــى!

كان بُلْبُلان من بلابلِ الرّيف قد تصاحبا، وكان كلُّ واحدٍ منهما أجملَ من الآخر في شكلِه وريشِه، وأجنحتِه ومِنْقارِه، وحلاوةِ إنشاده، وعُذوبةِ تغريدِه، وقد التقيا ذاتَ مرّة في البستانِ الرَّائعِ الذي يملكُهُ الرّجلُ الغني.

تلاقَــى بــروضٍ بُلْبُــلانِ فواحِــدٌ

لــه قَفَــصٌ قــد نِيْــطَ بالفنَنِ الأَعْــلى

كان البُلبلُ الأول يعيشُ في هذا البستان عندَ الرّجلِ الغني، وقد أحضرَ له قَفَصاً، فأسكنَهُ فيه، وأغلقَ عليه بابَهُ حتى لا يخرجَ منه، ورفعَ القفصَ على شجرةِ جَوْز، وعلّقَهُ بأعلى غُصْنٍ فيها.

لــه حولَــهُ مــا يَشْــتَهِي مِــنْ فواكــهٍ

وحَـــبٍّ وعـــيشٍ يجمـــعُ الـــرِّيَّ والأَكْـــلا

وأحضرَ الرّجلُ الغنيُّ للبُلْبُل كلَّ ما يتمنى ويشتهي من الفواكهِ مثل التُّفاحِ والعِنَب، والمَوز واللَّوز، وأحضرَ له حَبَّ القمحِ والشَّعيرِ والعَدَس،

ووضعَ عندَهُ أباريقَ الماءِ الصَّافي، وأكوابَ العصيرِ اللذيذ، فصارَ البُلْبُل داخلَ القفص ينعمُ بهذا العيشِ الذي يجمعُ الشَّراب الهَنِيّ، والأكلَ الطيّب!

وثانٍ طليقٌ باحِثٌ عن غِذائِهِ

إذا لم يجِدْهُ يَغْتَذي الشَّمْسَ والظِّلا

أمَّا البُلْبُل الثاني فلم يكنْ له قَفَص، بل كان حُرّاً طليقاً، يطيرُ في الطبيعة، ويتنقّلُ من شجرةٍ إلى أُخرى، وينامُ فوقَ الأغصان، ويدورُ كلَّ يومٍ من الصَّباحِ يبحثُ عن غذائِه وطعامِه، وإذا لم يجدْ شيئاً يأكلُه فإنّه يُعرِّضُ جسمَهُ لأشعةِ الشَّمس؛ حتى تُسَخِّنَهُ، وتمدَّهُ بالطاقة، وتجعلَهُ قادراً على الحركةِ والطيران، فإذا أحسَّ بحرارةِ الشَّمسِ العالية ذهبَ يستريحُ في ظلالِ الأشجارِ والصُّخور!

فنادَهُ ذو العَيْشِ الرَّغيدِ ألا ابْتَدِرْ

إلى قَفَصٍ أُشْرِكْكَ في عِيْشَتي المُثْلَى

فلمّا اقتربَ البُلْبُل الثاني من بُستانِ الرّجلِ الغني عرفَهُ البُلْبُل الأول السّاكن في القَفَص الذي يتنعّم بالعيشِ الرّغيد الطيّبِ الواسع، فنادَاهُ بأعلى صوتِه: تعالَ يا صاحبي، وأسرعْ إليّ؛ لكي تكونَ شريكي في هذا القَفَص الذي يجمعُ أطايبُ العيشِ الكريم، والحياةِ السَّعيدة!

إلامَ طوافٌ مُزْمِنٌ وتَشَرُّدٌ وَلَمَّا تَذُقْ أمناً نهاراً ولا لَيْلا

تعالَ يا صاحبي، تعالَ عِشْ معي في هذا القَفَص الذَّهبي العَجيب، فإلى متى تظلُّ تطوفُ وتدورُ طوالَ عُمرِك، وعلى مَدار زمانِك؟

إلى متى تظلّ شارداً في الجبالِ والأودية؟ إلى متى تظلّ تطيرُ وتبحثُ عن غِذائِك، وأنتَ خائفٌ من الصّيادين، فلا تعرفُ طَعْمَ الأمنِ وراحةِ البَال في نهارِك وليلِك؟

وأرقـدُ مِـلْءَ العَـيْنِ لم أخـشَ صـائِداً

ولا أَخْتَشي نَسْراً ولا أَتَّقي نَصْلا

أمَّا أنا فإنّني أنامُ طوالَ الليل، وفي أيّ وقتٍ أشاء، أنامُ آمناً مُطمئناً، لا يُعكِّرُ نومي شيء، ولا أخافُ صيّاداً يَرْميني، ثمّ يذبحني ويَشْويني، ولا أخافُ من نَسْر كاسرٍ يهجمُ عليّ، ولا أخافُ من نَصْلٍ أو حَديدةٍ من رُمحٍ أو سَهْمٍ أو سِكّين!

أُقَضّي نهاري بين رَقْصٍ إلى غِنَا

كأنّ الغِنا والرَّقصَ لي أصبحا شُغْلا

ولو تعلمُ كيف أقضي ساعاتِ نهاري لعجبتَ!

إنّني أقضيها في الرّقص، فأتمايلُ بجسمي، وأهزُّ رأسي، وأرفرفُ بجناحي، ثمَّ أشدو بأحلى الألحان، وأُغرّدُ تغريداً مُطْرباً، وأُغنّي: "يا ليل، يا عين" حتى يطربَ أهلُ البستان!

وقد أصبحَ الرّقصُ والغناءُ شُغْلاً لي، فكأنّني أعيشُ لأرقصَ وأُغنّي، ليس لي عَمَلٌ غيرهما!

هَلُـــمَّ لِحُلْـــوِ العـــيشِ قـــالَ رفيقُـــهُ:

صَـــــدَقْتَ، ولكـــــنْ: طَعْـــــمُ حُريّـــــتي أحلـــــى!

فتعالَ يا صاحبي، لنعيشَ معاً في هذا القَفَص، تعالَ إلى العيشِ الحُلو، تعالَ إلى الطَّعامِ اللَّذيذ، تعالَ إلى الرّاحة والسّعادة، تعالَ إلى الرّقصِ والغِناء!

التفتَ البُلْبُلُ الثاني إلى صاحبِه فقال له: نَعَمْ صَدَقْتَ، ففي قَفَصِك العيشُ الحُلو، والطعامُ والشَّراب، والرَّقصُ والغناء، ولكنَّ قَفَصَك يخلو من شيءٍ عظيم، هو الحُريّة.

ألا ترى أنّك لا تستطيعُ الخروج، ولا تستطيعُ الطَّيران؟

ألا ترى أنّك مُحاصرٌ بين أسلاكٍ وقُضبان؟

ألا ترى أنّك مُحرومٌ من التجوّلِ بينَ الحقول والغُدران؟

ألا ترى أنّك لا تختارُ طعامَك وشرابَك؟

ألا ترى أنّك قد صِرْتَ عَبْداً لصاحبِ البستان يأخذُك حيثُ شاء، وإذا شاءَ ذبَحَك؟

أمَّا أنا فأعيشُ بحريّة، أطيرُ حيثُ أريد، وأختارُ طعامي وشرابي، ولستُ عَبْداً لأحد، ولا أخضعُ إلا لله الذي خلَقني، وسخَّرَ لي هذه الطبيعةَ أمرحُ فيها وأسْبَح!

يا صاحبي، يا أيُّها البُلْبُل المنَعَّم المدَلّل، طَعْمُ حُريّتي أحلى ممّا أنتَ فيه من عيشٍ رَغيد!

ثمَّ حرَّكَ البُلْبُل الحُرّ جناحيه، وطارَ بعيداً عن البستان، وهو يغنّي ويردّد:

"ولكنْ: طَعْمُ حُريّتي أحلى"!

لما انتهَتِ القصّةُ هزّتْ جمانةُ رأسَها إعجاباً بروعةِ الحكاية، وقالت: لِمَنْ هذه القصيدة الجميلة يا جدّي؟

الجدّ: هي للشّاعرِ العراقيّ "أحمد الصَّافي النَّجَفيّ".

وفي القصّةِ درسٌ عظيمٌ نتعلّمُه منها، فما هو؟

جمانة: نتعلّمُ من هذه القصّةِ أنْ نكونَ أحراراً طُلقاء، لا نخافُ من أحد، ولا نخضعُ لأحد، إلا لله ﷻ، ولا نقبلُ بالعيشِ الطيّب مع الذّل والإهانة، وقد مَرَّ بنا من قبلُ يا جدّي، قولُ عَنْتَرة فارسِ الصَّحراء:

لا تَسْقِني مـاءَ الحيـاةِ بذلّـةٍ بل فاسْقني بالعِزِّ كأسَ الحَنْظَلِ!

فالإنسانُ الحُرّ لا يريدُ العيش الحُلو مع الحياةِ الذَّليلةِ الكريهة، بل يفضّلُ الحياةَ المرّةَ الصَّعبة مع الحريّةِ وعزّةِ النفس.

سمعَ عمّار صوتَ جمانة، فأقبلَ وهو يردّدُ بيتَ عنترة، فقالت له جمانة: فاتَكَ عِلْمٌ غزير، أيّها النائمُ في السّرير، وإذا أردتَ أنْ أقرأَ عليكَ القصيدة، وأحكيَ لكَ القصّة، فعليك أنْ تقيدَّ رِجْليك بهذا الحَبْل، وتربطَهُما بالشَّجرة!

عمّار: اللهُ يُغنيني عن حكايتِك، ولستُ أُذِلُّ نفسي لأحد، وصحيحٌ أنَّ قصّتَكِ حُلوة، ولكنْ طَعْمُ حُرّيتي أحلى!

الجدّ: أحسنتَ يا عمّار، تذكرُ هذه الحكمةَ الثَّمينة كأنّك كُنتَ معنا!

عمّار (مفتخراً): أنا ذَكيّ، أنا عَبْقريّ: أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدَبي!

الجدّ: لا فخرَ يا عمّار، إلا بالعِلْمِ النافع، والخُلُقِ الكريم، فقوما يا "توم وجيري"!

صَعِدَ عمّار على شجرةِ التُّوت يقلدُّ صوتَ البوم والغِرْبان، وانصرفتْ جمانةُ إلى المنْزل، وأخذَ الجدّ إبريق الماء ليتوضّأ، وعمَّ الهُدوء!

(٥)

مُناظرة بين الجَمَل والسّيارة

عادَ عمَّارٌ وجمانةُ من المدرسة، وهما مُتشوِّقان إلى سماعِ قصّةٍ جديدةٍ من جدِّهما الخليل، وكان الجدُّ مشغولاً بكتابةِ مُعْجَمٍ يجمعُ كلماتِ اللغة العربيّة، ويفسِّرُها، فسألَهُ عمّارٌ قائلاً: ماذا تصنعُ يا جدِّي؟

الجدّ: أكتبُ الكلماتِ التي جمعتُها من البادية، وأشرحُ معانيها، حتى يكتملَ عندي كتابٌ أو مُعْجمٌ للغةِ العربيّة أُسمّيه "مُعْجَم العَيْن"؛ لأنَّ أوّلَ حرفٍ فيه هو العَيْن.

جمانة: وكيف كُنتَ تتنقّلُ في الباديةِ الواسعة، وتطوفُ على قبائلِ العرَب؟

الجدّ: كنتُ أمشي على قَدَميّ تَارَة، وأركبُ الجَمَل تَارَةً أُخرى!

عمّار: لِمَ لَمْ تركبِ السّيارة يا جدّي، بدلاً من الجَمَل؟

أم أنتَ مثلي لا تُحْسِنُ قيادةَ السّيارة؟!

الجدّ: لم تكنِ السَّيارةُ معروفةً في زمانِنا، كما تعرفونها أنتم اليوم، ولم يكنْ عندَنا من وسائلِ النقل إلا الحمير والجِمال والبِغال.

جمانة: أنا أقولُ: إنَّ السّيارةَ أفضلُ من الجمَلِ ألفَ مرّة!

عمّار: وأنا أقولُ: إنَّ الجمَلَ أفضلُ من السّيارةِ مليونَ مرّة!

باللهِ يا جدّي، أيُّهما أفضل: السّيارةُ أم الجمَل؟ قلْ رأْيَك بصراحة!

الجدّ: لقد اختصمَ الجمَلُ والسّيارة كما اختصمْتُما، فكلٌّ واحدٍ منهما يقول: إنّه أفضلُ وأجمل، وأحلى وأغلى، وأسرع وأروع!

فاسْمَعا ما دارَ بينهما من حِوار وشِجَار، ومُبارزة ومُناظرة.

تلاقى في أحدِ الأيام جملٌ وسيّارة، وكان الجمَلُ قد جاءَ من البادية، وجاءَت السّيارةُ من المدينة، فوقفا ليستريحا على الطَّريق.

مَدَّ الجمَلُ عُنُقَهُ الطَّويل نحوَ السّيارة، وأخذَ يستهزئُ بها ويضحك، فغَضِبَت السّيارةُ **وقالت**: أيّها الجمَل، ما أجهلَك!

لو نظرتَ إلى طُولِ عُنُقِك لضحكتَ على نفسِك، ولو نظرتَ إلى شفتيكَ الغليظتين، وخُفَّيْكَ الخَشِنين، لعرفتَ أنّك مخلوقٌ مُضْحكٌ سَخيف!

الجمَل: بَلْ أنا مخلوقٌ رائع، خلقَني ربّي من لحمٍ ودَمٍ وعَظْم، وذكَرَني في كتابِه العزيز، ودعا الناسَ إلى التفكّرِ في خَلْقِي وضخامةِ جِسْمي، وفي قوَّتي وشدّةِ بأسي، وفي رَقَبتي وسَنامي، وفي منافعي لهم من اللُّحوم والألبان، فقالَ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

أمَّا أنتِ أيّتُها السّيارة فقد صنَعَكِ الناسُ بأيديهم، وجمّعوا قِطَعَكِ، وصهرُوها بالنار، فليس فيكِ شيءٌ يدعو إلى النظرِ والتّفكُّر، وشتّانَ بين مَنْ خلَقَهُ الله، ومَنْ صنعَهُ الناس!

السّيارة: نَعَمْ، صنعَني الناسُ من قِطَعِ الحديدِ والزُّجاجِ والنُّحاس، ولي

نوافذ وأبواب، ولكنّني آيةٌ من آياتِ الله، ولو تقدّمَ الزّمانُ بي لكنتُ إحدى العَجائبِ السَّبع!

وقد ذُكِرْتُ في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

فأنا المخلوقُ الذي لم يعرفْهُ الناس في الزّمان الأوّل، وعرفوه في هذا العصر.

أنا المقصودةُ بقولِه تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

الجمَل: لا تحاولي مُفاخرتي، فأنا أجملُ منكِ شَكْلاً، وأبدعُ خَلْقاً، قد جَمَعْتُ خِصالَ الخيرِ كُلَّها، فأنا أحملُ على ظهري الأمتعةَ الكثيرة، والأسلحةَ الثّقيلة، والبضاعةَ الثّمينة، وأقطعُ بها مسافةً طويلة، دونَ مَلَل ولا كَلَل، حتى سمّاني العرَبُ سفينةَ الصَّحراء، وأشارَ إليَّ كتابُ ربّي بقوله: "وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ".

السّيارة: ما أنتَ بأجملَ منّي، فانظرْ إلى تناسُقِ جِسْمي، ولمعَانِ شَكْلي، واستدارةِ عَجَلاتي، وما أنتَ بأقدرَ منّي على الأحمال، فأنا أحملُ أضعافَ ما تحمل، أحملُ الأشياءَ على مقاعدي، وأحملُها على ظَهْري، وأحملُها في صُندوقي!

ومثَلي ومَثَلُك في الحَمْل كمثَلِ الفيل والنّملة!

فأنتَ نملةٌ صغيرة تحملُ حبّةَ شَعير واحدة، فلا تُقارِنْ نفسَكَ بي!

الجمَل: لا تتجاهلي فَضْلي، فأنا أحملُ النَّاسَ على ظَهْري، أحملُ الرُّكبان والفُرْسان، وأحملُ العرائسَ الحِسَان، وكم حملتُ من نبيٍّ مُرسل، وعالمٍ مُبجَّل، وشاعرٍ مُفضّل!

السّيارة: أنتَ لا تحملُ على ظَهْرِكَ إلا راكباً واحداً، فإذا حملتَهُ فإنّك تهزُّهُ هزّاً عنيفاً، وتحرّكُهُ تحريكاً شديداً حتّى تتقطّعَ أمعاؤه!

أمَّا أنا فأحملُ خمسةَ ركّاب، وأحتضِنُهم كما تَحْتَضِنُ الأمُّ وليدَها، فلا يهتزّون ولا يضطربون، بل يرتاحون وينامون، وبينَ أيديهم طعامُهم وشرابُهم، لا تُغبّرُ الصُّحراءُ ملابِسَهم، ولا تُلوّحُ الشُّمسُ وجوهَهم، ولا تؤذي الرّيحُ أجسامَهم!

الجمَل: الفرقُ بيني وبينكِ أنَّني أطيعُ صاحبي، وأَنْقَادُ للطفلِ الصَّغير، ولو شئتُ استصْعَبْتُ على الأميرِ الكبير، وإذا سمعتُ صوتَ المغني الحادي سَلَّمْتُ إليه قِيادي!

السّيارة: طاعتي لسائِقي أشدّ، فأنا طوعُ يدِهِ ورِجْلِه، يسرعُ إذا شاء، ويُبْطِئُ إذا شاء، ويُوقِفُني متى شاء، بلا سَوْطٍ ولا عَصا، ولا أحتاجُ إلى حَادٍ، فَفِيَّ مِذْياع، يبثُّ الأخبار، ويُطْرِبُ الأسماع!

الجمَل: أنا أطرب؛ لأنّني مخلوقٌ فَريد، وأنتِ لا تَطْربين لأنّكِ كَوْمَةٌ من حديد، وأنا أَصْبِر، وأنت لا تَصْبرين، أنا أصْبِرُ على العطش والجوع أياماً معدودة، أصبرُ على العطش عشرةَ أيام، وأصبرُ على الجوع شهراً كاملاً، حتى ضُربَ بِيَ المثل فقيل: أصبرُ مِنْ جَمَل!

السّيارة: بل ضربوا بك المثَل في الحِقْد فقالوا: أَحْقَدُ من جَمَل!

ومع ذلك فأنا أصْبَرُ منكَ على الجوعِ والعطش، فلا أتزوّدُ بالوَقُود إلا بعدَ أنْ أقطعَ مائةَ مِيْل، وطعامي هو النِّفِط الذي أشربُهُ كما يشربُ الناسُ العَسَل!

فلا تحاولْ مُكاثرتي ومُنازعتني، يا آكِلَ الشَّوكِ والعُشبِ والبَصَل!

الجمَل: ولكنَّني أسرعُ منكِ إذا مشيتُ أو ركضتُ أو جَرَيْت، فأنا السّابقُ في الحَلْبَة، إذا جرى سِباق، الفائزُ بالجائزة، إذا التفَّتِ السّاقُ بالسّاق، الحائزُ على البطولة، إذا تنافسَ الأبطالُ والرّفاق!

السّيارة: لا والذي خَلقَ الرَّعْدَ والبَرْق، ما أنتَ بأسرعَ منيّ، بل بيننا فَرْق، فأنا أسيرُ بسرعةٍ عالية، كأنَّني الرِّيحُ المرْسَلة، وما تَبْلُغُهُ أنتَ في يوم أبْلُغُه أنا في ساعة، وإذا كنتُ في السِّباق، فكأسُ البطولةِ لي محمولةٌ على الأعناق!

الجمَل: لي مِيْزَةٌ ليستْ لكِ، فأنا أسيرُ في الظَّلْماء، فلا أحتاجُ إلى مَرايا وأضواء، وأسيرُ في الطريق الضّيق، فلا أحتاجُ إلى شارعٍ مُمَهَّد!

أمّا أنتِ فليستْ لكِ حياةٌ ولا حرَكة إلا بالشَّوارِعِ الفسيحةِ المعبّدة، وشُرطةِ السّير، وإشاراتِ المرور، فعلامَ هذا التكبّرُ والغُرور؟!

السّيارة: أنا أحافظُ على رُكّابي، فهم أهلي وأحبابي، وإذا مشيتُ مِثْلَكَ فوقَ الشَّوْك والصَّخْر آذيتُهم، وعرَّضْتُهم للخطر، والطريقُ الواسعُ

أحبُّ إليَّ من الضيّق، والنورُ خيرٌ من الظُّلمة، وإشاراتُ المرور سلامةٌ للسَّائقين والرَّاكبين، فَعَلامَ كثرةُ الجَدَل أيّها الجمَل؟!

ثمَّ لمّا انتهى الحِوار تنهَّدَ الجمَل **وقال**:

- أيّتها السّيارة، لقد اختلفنا، فمَنْ نُحَكِّمُ بينَنا؟

السّيارة: نُحَكِّمُ بيننا أولَ إنسانٍ يطلعُ علينا من أسفلِ هذا الوادي، فهل ترضى؟

الجمل: رضيتُ بذلك.

ثمَّ بعدَ مُدّةٍ طلعَ رَجُلٌ فلاحٌ من أسفلِ الوادي، فذكرا له ما وقعَ بينهما من نقاشٍ وخلاف، وقالا له: احْكُمْ بيننا، وقلْ لنا: مَنِ الغالبُ، ومَنِ المغلوب.

قال الرَّجل: لكلٍّ منكما منافعُ كثيرة، وفضائلُ عظيمة، ولا يستطيعُ الناسُ أنْ يستغنوا عنكما، فكلٌّ مُنْكُما يُكمِّلُ الآخر، وأنتما مِثْلُ العينينِ والشّفتينِ واليَدين:

فهلْ يستطيعُ أحَدٌ أنْ يستغنيَ عن إحدى عينيه؟

هلْ يستطيعُ أنْ يستغنيَ عن إحدى شَفَتيه؟

هلْ يستطيعُ أنْ يستغنيَ عن إحدى يديه؟

لا يستطيع، فلذلك ليس فيكُمَا غالِبٌ ولا مَغْلوب!

فلمّا سَمِعا حُكْمَ الرَّجُلِ رَضِيَا به، وعادَ الجَمَلُ إلى البادية، ومضَتِ السّيارةُ إلى المدينة!

نظرَ الجدُّ إلى عمّار وجمانة، فإذا كلٌّ منهما ينظرُ في وجهِ الآخر، كأنّما يقولُ له:

- أنا الغالب، أنا الفائز، أنا المنتصر في المناظرة!

فقال الجدّ: الغالِبُ والفائِزُ والمنتصِرُ دائماً هو الذي:

يُضَحِّي بجهدِه وعِلْمِه من أجلِ النّاس، لأنَّ خيرَ النّاس أنْفَعُهم للنّاس.

وهو الذي يُحبُّ والديه، وبلدَهُ، وأمّتَهُ؛ لأنَّ الحُبَّ هو أساسُ الحياةِ السَّعيدة.

وهو الذي يفتخرُ بلغتِهِ، ويحافظُ عليها؛ لأنَّ اللغةَ هي هُوِيّةُ الإنسان، ورَمْزُ كرامتِه.

عمّار وجمانة (بصوتٍ واحد): سَمِعْنا وأَطَعْنا يا جَدَّنا!

ثمَّ خرجا، وهما يهتفان: عاشَ الخَليل، عاشَ الخَليل، عاشَ الخَليل!

خاتمة

بعدَ شَهْرين مِنَ الإمتاعِ والمؤانسة في مَجْلسِ الجَدِّ وعمّار وجُمانة، عزَمَ الجدُّ الخليل على السَّفَرِ والرَّحيل؛ ليلتقيَ بعلماءِ اللّغةِ والأدب، وليعلّمَ أطفالَ العَرَب، فيخرج من البَصْرةِ إلى بغدادَ والقاهِرة، ودمشقَ والدَّوحة، وعَمّانَ وصَنْعاء، والخرطومَ والرِّباط.

نَهضَ عمّار وجمُانة في الصَّباحِ الباكر، وقد عرَفا أنَّ جَدَّهُما الحبيبَ سَيُسَافرُ بعدَ الفجر، فقَبَّلا يدَيه وعَيْنيه، وجَرَتِ الدُّموعُ على خُدودِهما، وتَأَثَّرا وحَزِنا، فاحتضَنَهُما الجَدّ، وقبَّلَ رأسيهما، وقالَ لهما:

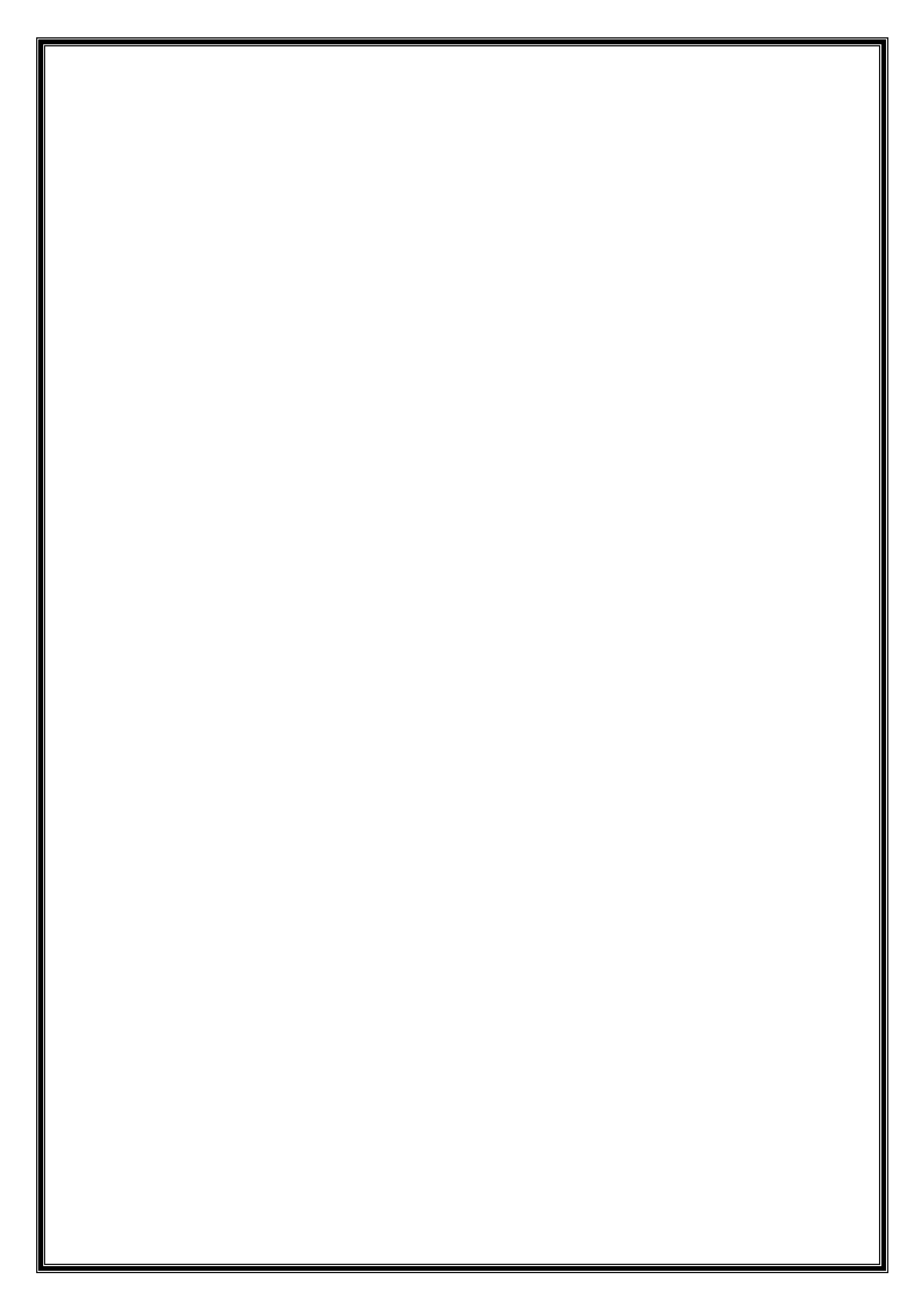
لا تَحْزَنا فسوفَ أعودُ إليكما إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

سوفَ أعودُ إليكما، وقد أصبحتُما فارسينِ من فُرْسانِ الإبداعِ والاختراع.

سوفَ أعودُ إليكما، وقد أصبحتُما من حُمَاةِ العربيّةِ!

ثمَّ بعدَ أنْ صَلَّى الفجرَ أخذَ مَتاعَهُ وزادَهُ، وحملَ عصاهُ، وركبَ ناقتَهُ، وهو يُلَوِّحُ بيدِه اليُمنى: إلى اللِّقاء يا عمّار، إلى اللِّقاء يا جُمانة!

وعمّار وجمانة يُلَوِّحان بأيديهما: إلى اللِّقاء، أيّها الجدُّ الغالي، إلى اللِّقاء!



الفهرس

تم بحمد الله